
رسائل السلام
(١٣)
لا تفعل .. !
أربعون وصية أخلاقية وروحية ودعوية
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يبين الكثير من النواحي الواقعية المرتبطة بالتعاليم التربوية الواردة في النصوص المقدسة، ذلك أن الكثير منا للأسف يرددها من غير فهم لأعماقها ومعانيها البعيدة التي تشمل الحياة جميعا.

وقد كان التركيز فيه على الخصال التي نهى عنها الشرع، إما نهيا صريحا، أو بالإشارة، لأن التقوى والورع لا يمكن أن يتحققا من دون ترك المنهيات، ومراعاة حدود الله، ولذلك سميته [لا تفعل]

وذلك لا يعني اقتصاره على المنهيات.. وإنما يشمل المأمورات أيضا.. فترك كل منهي عنه يستلزم استبداله بالمأمور به.. ولهذا ذكرنا البدائل الشرعية لكل ما نهى الله عنه من سلوكات ومواقف.

وقد حاولنا أن نذكر في وصايا هذا الكتاب كل ما يرتبط بحياة المسلم من جوانب أخلاقية وروحية ودعوية .. وهي تشمل نواحي الحياة جميعا.

وقد صغناه بصياغة بسيطة على شكل وصايا يوجهها الكاتب لرفيق عزيز عليه، يراه كل حين يقع في خطأ من الأخطاء، فيسرع وينبهه إلى اجتنابه،

رسائل السلام

(13)

لا تفعل.. !

أربعون وصية أخلاقية وروحية ودعوية

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1439 ـ 2018

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحاول هذا الكتاب أن يبين الكثير من النـواحي الواقعيـة المرتبطة بالتعاليم التربوية الـوادرة في النصـوص المقدسـة، ذلـك أن الكثـير منـا للأسـف يرددهـا من غـير فهم لأعماقهـا ومعانيها البعيدة التي تشمل الحياة جميعا.

وقـد كـان التركـيز فيـه على الخصـال الـتي نهى عنهـا الشرع، إما نهيـا صـريحا، أو بالإشـارة، لأن التقـوى والـورع لا يمكن أن يتحققا من دون ترك المنهيات، ومراعاة حدود الله، ولذلك سميته [لا تفعل]

وذلـك لا يعـني اقتصـاره على المنهيـات.. وإنمـا يشـمل المـأمورات أيضـا.. فـترك كـل منهي عنـه يسـتلزم اسـتبداله بالمأمور به.. ولهذا ذكرنا البدائل الشرعية لكـل مـا نهى اللـه عنه من سلوكات ومواقف.

وقد حاولنا أن نذكر في وصايا هذا الكتاب كل ما يرتبـط بحياة المسـلم من جـوانب أخلاقيـة وروحيـة ودعويـة .. وهي تشمل نواحي الحياة جميعا.

وقد صغناه بصـياغة بسـيطة على شـكل وصـايا يوجههـا الكاتب لرفيق عزيز عليـه، يـراه كـل حين يقـع في خطـأ من الأخطـاء، فيسـرع وينبهـه إلى اجتنابـه، ويسـتعمل لـذلك كـل وسائل الترغيب والترهيب.

وقــد اســتعملنا هــذه الصــيغة لســهولتها، وللتنبيــه إلى ضــرورة النصــيحة، فالعلاقــات بين المســلمين تنبــني على النصح، لا على المجاملة.. والمؤمنـون يغسـل بعضـهم بعضـا، ويصحح بعضهم أخطاء بعض.

وقد أوردنا فيـه الكثـير من الروايـات والأخبـار والأشـعار لأثرهـا الـتربوي البليـغ، ولـذلك لم نهتم كثـيرا بمـدى صـحة الأحـاديث أو الروايـات، لأن العـبرة بالمعـاني الـواردة فيهـا..

ولذلك اكتفينا بذكر مصادرها الحديثية أو التربوية من غير تعمق في تصحيحها أو تضعيفها.

واخترنا كذلك أن تكون هذه الوصايا أربعين وصية لما ورد في الأحاديث من فضل الأربعين[1] ، في المصادر السنية والشيعية، والرواية وإن كانت ضعيفة في المصادر السنية[2] إلا أنها وصلت إلى حد الشهرة والاستفاضة في المصادر الشيعية، بل ذهب البعض الى تواتر الحديث.

ولذلك نرى اهتمام العلماء من كلا المدرستين بجمع الأربعين في المجالات المختلفة[3] .. وقد اخترنا هذا المجال التربوي الخاص.. ولذلك لم تخل وصية من الوصايا التي ذكرناها من النصوص المقدسة الدالة عليها.

1() منها قوله ﷺ: (من حفظ على أمتي أربعين حديثا مما يحتاجون إليه في أمر دينهم، بعثه الله عزوجل يوم القيامة فقيها عالما)

2() قال ابن الملقِّن: (حديث [من حفظ على أمتي أربعين حديثاً كُتب فقيهاً]: يُروى من نحو عشرين طريقاً وكلها ضعيفة ، قال الدارقطني : كل طرقه ضعاف لا يثبت منها شيء ، وقال البيهقي : أسانيده ضعيفة، [خلاصة البدر المنير (2 / 145)]، وقال البيهقي : (هذا متن مشهور فيما بين الناس وليس له إسناد صحيح) [شعب الإيمان] (2 /ـ 270)، وقال النووي : (واتفق الحفاظ على أنه حديث ضعيف وإن كثرت طرقه) [مقدمة الأربعين النووية]

3() وقد بدأ هذا الاهتمام من عهد مبكر، ومن الأربعينيات المؤلفة في أواخرالقرن الثاني الهجري ما ألفه عبد الله بن المبارك المَرْوَزي، وكتاب الأربعين عن المشايخ عن الأربعين صحابيا، لمحمد بن أسلم الطوسي.

وفي القرن الرابع كتب أبو العباس الحسن بن سفيان النَسَوي كتاب الأربعين في المسائل الاجتماعية والأخلاقية؛ وكتب أبو بكر محمد بن الحسين الآجري (توفي 360هـ) كتاب الأربعين حديثاً في العقائد والأخلاق والأحكام.

وفي القرن الخامس كتب عبد الرحمان السلمي [الأربعين في التصوف]، وكتب أبو سعيد أحمد بن محمد الماليني [الأربعون في شيوخ الصوفية]]، وكتب أبو نعيم الأصفهاني [الأربعون على مذهب المحققين من الصوفية]

وهكذا ألفت الكثير من الأربعينيات في سائر العصور، ومنها [الأربعون في فضائل الزهراء] لأبي صالح أحمد بن عبد الملك النيشابوري، و[كتاب الأربعين الودعانية] لأبي نصر محمد بن علي المشهور بان ودعان.

لا تدع علمك يغلب عقلك

ذكـرت لي ــ أيهـا الرفيـق العزيـز ــ منـذ جمعتـني بـك الطريق أنك قرأت كتبا كثـيرة، وتعلمت علوما جمـة، ورأيت علماء كثـيرين، ومن بلاد مختلفـة.. وأنـا أُكـبر فيـك كـل ذلـك وأُعظمُـه، وأحترمـك لأجلـه؛ فطـالب العلم يسـتغفر لـه كـل شيء حتى الحيتان في البحر، وحتى الملائكة تضع أجنحتها له رضا بما يصنع.

ولكني مـع كـل ذلـك الإكبـار والإجلال لشخصـك الكـريم أريد أن أوصيك بما أوصي به نفسـي، وبمـا أوصـي بـه ولـدي وأعز الناس علي.. وأقول لك: لا تدع علمك يغلب عقلك.. ولا تدع تلك الدفاتر التي كتبتهـا، والكتب الـتي جمعتهـا، والعلـوم التي حفظتها، تسد عليها نوافذ عقلك؛ فتحجب عنه الرؤية..

فالعلم الذي تُفتح به أبواب الحقائق قد تُغلق بـه أبوابهـا أيضا.. هو يشبه المفتـاح تمامـا، بـه نفتح، وبـه نغلـق؛ فلـذلك احـذر أن يكـون علمـك حجابـك، وأن تكـون معارفـك قيـودا لعقلك تحجبه عن الحقيقة.

لا تكن ـ أيها الرفيق العزيـز ــ مثـل ذلـك الأسـتاذ الـذي ذهب إلى بعض مشـايخ الـروح ليطلب منـه أن يعلمـه كيـف يبصر الحقائق، وعنـدما بـدأ الشـيخ بدلالتـه على أول كلمـات الطريق راح الأستاذ يعقب عليها، ويشرح تفاصيلها، ويذكر لـه مـا قـال الخليـل بن أحمـد وسـيبويه وأفلاطـون وأرسـطو والمعتزلـة والكراميـة حولهـا.. ولم يـدع فرقـة إلا ذكرهـا، ولا عالما إلا وأشار إليه.. حينها نظر الشيخ إليه بحزن، وقـال: يـا بني إن أردت أن تسلك الطريق؛ فاترك علومك، وتعـال إلي؛ فعلمك صار حجابا لروحك.. وبصرك صارت حجابا لبصيرتك.

وهكذا أقول لك: لا تدع تلك العلوم التي تعلمتهـا، تحـول بينك وبين العلوم التي يمكن أن يفجرها الله من بئر ذاتك إن أنت أدمنت التفكـير.. فنحن مطـالبون بـأن نفكـر بعقولنـا لا

بعقول غيرنا.. ونحن مطالبون بأن نرى الوجود ببصائرنا، لا ببصائر غيرنا.. ونحن لا يمكننا أن نكتشف حلاوة العسل ما لم نتذوقه بألسنتنا لا بألسنة غيرنا.

لذلك دع لعقلك المجال لأن يتذوق الحقائق، ولا تحجب عنه الرؤية، حتى لا تكون مثل النضر بن الحارث بن علقمة، ذلك الجاهلي المشرك المقيت الذي راح يُحجب بما حفظه من قصص الأولين عن رؤية رسول الله ﷺ، وعن سماع القرآن الكريم، ولذلك كان بلال الحبشي، ذلك العبد الأمي البسيط أكثر وعيا وعقلا منه؛ فأبصر ما حجب عن النضر، ورأى ما لم يره، لأنه لم تكن هناك أي دفاتر تحول بينه وبين الرؤية.

وليت النضر بن الحارث اكتفى بحجاب عقله عن الحقائق، بل راح يحجب عنها غيره، مثلما يفعل كل المحجوبون بعلومهم..

لقد كان يستعمل كل الأساليب ليصرف الناس عن الحقائق التي يذكرها رسول الله ﷺ إلى أساطير رستم وإسفنديار التي يحفظها، وكان يقول للقرشيين: (أنا واللّه يا معشر قريش أحسن حديثا منه، فهلم إليّ فأنا أحدثكم أحسن من حديثه)، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ثم يقول: (بماذا محمد أحسن حديثا مني؟ وما أحاديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما كتبتها)، وكان يقول لهم: (محمد يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم)[1]

وكان إذا سمع القرآن الكريم، لم يترك لحقائقه أن تصل إلى عقله، وكيف تصل إلى عقله ورستم وإسفنديار يحولان بينها وبينه.. ولذلك كان ينشغل برؤيتهما عن رؤية رسول الله ﷺ، وينشغل بقصتهما عن القرآن الكريم.. بل كان يردد بكل كبرياء ما حكاه القرآن الكريم عنه: {قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ }

[1] سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (2/ 345)

[الأنفال: 31]

ولـــذلك اعتـــبر بقصـــته.. ولا تـــدع لرســـتم وإســـفنديار وأرسطو وأفلاطون والخليل وسيبويه وكـل علمـاء الـدنيا، أن يحولـوا بينـك وبين عقلـك.. فعقلـك هـو وسـيلتك إلى ربـك.. وعقلك هو المفتاح الذي تفتح لك بـه حقـائق الوجـود؛ فاحـذر أن يسقط المفتاح منـك، ليتناولـه النضـر بن الحـارث، ويملي عليك حينها كل ما يريده، لترى العالم كما يراه.

فالنضر بن الحارث ليس مجرد رجل من قريش، بل قـد يكون أستاذا في الجامعة، أو كاتبا كبـيرا، أو باحثـا عبقريـا، أو صاحب شهرة تخترق الآفاق.. فكل من يريـد منـك أن تعطيـه مفاتيح عقلك، ليضـع فيـه مـا يريـد هـو نسـخة من النضـر بن الحارث.. ذلـك الـذي استسـلمت لـه بعض العقـول؛ فـراحت تغلق بقصصه وعلومه نوافذ بصائرها.

ولـــذلك أقـــول لـــك: اقـــرأ وتعلم وطـــالع.. ولكن لا تنس عقلك.. ولا تجعل علومك حجابا بينـك وبين الحقـائق، ولا تكن كأولئـك الـذين ذكـرهم اللـه تعـالى؛ فقـال: { فَلَمَّا جَـاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُـوا بِمَـا عِنْـدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَـاقَ بِهِمْ مَـا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [غافر: 83]

ولا تكن كأولئك الأحبار والرهبان الذين واجهو الأنبيـاء، لا لقلة علومهم، وإنما لضعف عقـولهم، أو لغلبـة علـومهم على عقولهم، أو لأنهم ـ كما ذكر القرآن الكـريم ــ كـانوا يحملـون العلوم، مثلما تحمـل الحمـير الأسـفار؛ فهي تحملهـا، ولكن لا تستطيع أن تتدبرها، أو تفكر فيها.

هذه وصيتي لك، ولنفسي، ولكل من يريد أن يخـــرج من دين قومـه ليـدخل دين اللـه.. فـدين اللـه لا نرثـه عن آبائنـا وأجـدادنا، ولا نتعلمـه من معلمينـا وأسـاتذتنا، وإنمـا هـو ذلـك الذي نعاني في البحث عنه، ونتضرع إلى الله بكـل صـدق أن يهدينا إليه؛ فإذا هدانا إليه طلقنا كل شيء في سبيله، وأولهـا تلك العلوم التي كانت تحول بيننا وبينه.

لا تأخذ دينك من الأعلم

أيها الرفيق العزيز.. رأيتك تتحدث مع بعضهم عن فضـل ذلك الشيخ الذي توهمت أنه أعلم الناس، مـع مـا تـراه عليـه من حدة وشدة.. وكنت تتحدث مثله بغضب شـديد، وكأنـك لا تدعو لعالم قد يصيب ويخطئ، وإنما تدعو لنبي معصوم.

وأنا لا أريد أن أصرفك عن ذلك الشيخ أو غـيره، ولكـني أريـد أن أذكـر لـك أنـك مهمـا أعملت عقلـك وأجهدتـه، فلن تتعـرف على الأعلم.. ذلـك أن العلم سـر بين العبـد وربـه.. والعلم ليس ألفاظــا تــردد، ولا مصــطلحات معجمــة تلاك، والعالم ليس ذلك الذي يقسم الشعرة بذكائـه.. وإنمـا العـالم ذلك الذي تنكشف له الحقـائق، فيراهـا رأي العين، وينكشـف له نور مصباح الهداية؛ فيكون أول السائرين على هديه.

والأعلم قد يكون مثل أولئك الفقهاء الـذين كـان يجلبهم الخلفاء والملوك أنصاف الليالي، ليحللوا لهم الحرام الواضـح بما يطيقونه من حيل، وليخلصوهم من المآزق الـتي تـوقعهم فيها شهواتهم.

والأعلم قد يكون مثل ذلك الفقيـه الـذي كـان يسـتعمل كــل أصــناف الــدهاء والحيلــة ليخلص جمهــوره من أثقــال التكاليف الشرعية بأبسط أنواع الحيل، ويتصور أنـه قـد ألغى ما ارتبط بهم من آثام، وكأن له القدرة على تغيير أحكام الله بحيلـه وخدعـه الـتي لا تختلـف عن حيـل وخـدع علمـاء أهـل السبت.

والأعلم قد يكـون مثـل ذلـك المحـامي الشـاطر الـذكي الذي يحفظ القوانين عن ظهر قلب، ثم يتلاعب في الاحتيــال عليها، ومزج بعضها ببعض ليخلص من يدفع له أكثر، وليــورط العاجز عن الدفع.

والأعلم قـد يكـون صـاحب ذاكـرة قويـة، يحفـظ الكتب الكثــيرة، ويرددهــا أمــام الملأ، لا ليملأهم بالحقــائق، وإنمــا

ليملأهم بالانبهار، لا بالحقائق، وإنما بذاكرته وذكائه وقدراته، لتمتلئ عقولهم به، لا بالحقيقة.

والأعلم قد يكون صاحب لسان فصيح، وكلمات شاعرية عذبة، ولكنها لا تختلف عن ذلك الذئب الماكر أو الثعلب المخادع أو الصياد الذي ينصب الشباك لمن يريد أن يصطاده.

والأعلم قد يكون صاحب ذكاء حاد، يقسم الشعرة بذكائه، ويتكلم في جميع الفنون، وعن جميع الفرق، ولكنه لن يعلم أتباعه إلا الغباوة والغفلة، لأنه لا يدلهم على الحقيقة المطلقة، وإنما يدلهم على شخصه المقيد؛ فلا يرون الوجود إلا من خلال مرآته المحدودة والممتلئة بكل ألوان الكدورة والتشويه.

لذلك بدل أن تتوجه لمن تراه الأعلم، أو لمن يدعي لك أنه الأعلم، أو لمن تقوم كل وسائل البهرجة الإعلامية بتزيينه لك بكونه الأعلم.. اذهب إلى ذلك المنزوي في قعر بيته، أو في قعر سجن مظلم، فلعلك تجد عنده من التقوى الممزوجة بالعلم النافع ما يغنيك عن كل تلك الأنداد التي تريد أن تستعبدك من دون الله.

أيها الرفيق العزيز، بدل أن تبحث عن الأعلم ابحث عن الأتقى ذلك الذي يخشى الله، ويمتلئ له محبة وعشقا.. ذلك الذي فني عن ذاته في ذات رسوله وأوليائه، فلم يعد له ظل ولا رسم.. لعل حاله ينتقل إليك؛ فتشرب من بحار الحب المقدس ما يغنيك عن حانات الحب المدنس التي أوقعها فيكم من يدعي أنه الأعلم.

بدل أن تبحث عن الأعلم ابحث عن ذلك الورع الذي وزن حركاته بميزان الشريعة؛ فلا يتحرك إلا بما تملي عليه، لا يدخل عقله ولا أهواءه ولا آراءه ولا اجتهاداته معها، بل هو يسلم لها مثلما سلم إبراهيم لرؤيا ربه، فلم يذكر أنها أضغاث أحلام، ليتهرب من مسؤولية الأمر الإلهي.

بــدل أن تبحث عن الأعلم الــذي يلتمس لــك الــرخص، ويعين أهــواءك عليــك، التمس الأورع الــذي يبحث لــك عن مواضع رضا اللـه، ومحـال هـداه؛ فـأنت لم تـأت لهـذه الـدنيا لتتثاقل إليها، وإنما أتيت إليها لتتزود منها.

واحذر، فقد يكون ذلك الأعلم الذي تقبل عليـه هـو كعب الأحبار، وذلك الأتقى الذي تفر منه هو أبو ذر؛ وأنت تعلم أنــه لما وقع الخلاف بين كعب الأحبار وأبي ذر في شأن الكنز، آثر النــاس كعبــا لكونــه صــاحب ذاكــرة قويــة، جعلتــه لا يكتفي بـالقرآن، وإنمـا يضـم إليـه كـل الكتب المقدسـة والمدنسـة، ولذلك لما وازن الناس بين علمي الرجلين، وجدوا كعبـا أكـثر علما؛ فآثروه، وسقطوا في شباك الصياد الذي لم يكن سوى الشيطان.

قد لا يكون كلامي مجديا.. فلذلك اسمع ما قال نبيك ﷺ، وهو يعلمنا كيف نجتذب تـرددات قنـاة الهدايـة الـتي تبث إلى عقولنا وقلوبنا، بدل قنوات الفتنة التي أدمنا عليها؛ فقد قـال: (لا تجلسوا عند كـل عـالم؛ إلا إلى عـالم يـدعوكم من خمس إلى خمس: من الشك إلى اليقين، ومن الريــاء إلى الإخلاص، ومن الرغبة إلى الزهد، ومن الكبر إلى التواضع، ومن العداوة إلى النصيحة)[1]

وقال: (من تعلم علما ليماري بـه السـفهاء أوليبـاهي بـه العلماء، أو يصرف به النـاس إلى نفسـه يقـول: أنـا رئيسـكم فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسـة لاتصـلح إلا لأهلهـا؛ فمن دعا الناس إلى نفسـه وفيهم من هـو أعلم منـه لم ينظراللـه إليه يوم القيامة)[2]

وقال: (يظهرالدين حتى يجاوز البحار، ويخاض في سبيل الله ثم يأتي من بعد كم أقوام يقرؤون القرآن يقولون: قرأنــا

---

[1] () رواه أبو نعيم في الحلية، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (1/ 184)

[2] () بحار الأنوار: 2 : 110.

القرآن، من أقـرأ منـا؟ ومن أفقـه منـا؟ ومن أعلم منـا؟. ثم التفت إلى أصحابه فقال: هل في أولئك من خـير؟ قـالوا: لا. قـال: اولئـك منكم من هـذه الآيـة: {وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُـودُ النَّارِ} [آل عمران: 10])[1]

وقال: (إني لا أتخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا، فأمـا المؤمن فيحجزه إيمانه، وأما المشـرك فيقمعـه كفـره؛ ولكن أتخوف عليكم منافقا عليم اللسان يقول ماتعرفون ويعمل ما تنكرون)[2]

هذه وصايا رسول الله ﷺ لي ولك ولكل الناس.. لتكـون معيـارا نـزن بـه العلمـاء الحقيقـيين، ونمـيزهم عن الكـذابين والـدجالين والمضـلين.. فلا يمكن أن نصـل إلى اللـه، ونحن نهتدي بهدي المضلين.

---

[1]() رواه ابن المبارك في الزهـد (152)، وأخرجـه أبـو يعلى (12/56)، والـبزار (1/99)

[2]() رواه الطبراني في الأوسط والصغير، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (1/ 187)

لا تحدث بكل ما تعلم

أيها الرفيق العزيز.. ارفق قليلا بأولئك العـوام البسـطاء الذين يتجمعون على مائدة علمك؛ فأجهزة هضـمهم لا تطيـق الطعام الـذي تقدمـه لهم؛ فلـذلك لا يمتصـونه طعامـا نافعـا، وإنما سموما قاتلة.

تمنيت لو أنك ــ أيهـا الرفيـق ــ بـدل أن تقـوم بـالحرث والزرع أمامهم، لتنشـر مـا تـراه من معـارف، أن تلقي إليهم بالثمرة جاهزة، ليأكلوها صافية من كل كدر، سـليمة من كـل عيب، خاليـة من كـل جائحـة، لأن بعض الـذين جلسـوا إليـك، وأنت تحــرث وتــزرع في حقــل المعــارف، أصــابتهم بعض الجروح الأليمة من محراثك ومنجلك، وقد ذكر الأطبـاء أنـه لا أمل في شفائهم منها.

لــذلك يمكنــك أن تنتقي من التلاميــذ أقــواهم عقلا، وأكثرهم قدرة، لتبث له ما شئت من علومك؛ أما من عداهم، فـانزل إليهم، وإلى مـا يطيقونـه، لـترفعهم بعـد ذلـك رويـدا رويدا، ولا تهجم عليهم بما يضرهم، ولا ينفعهم.

فالعلم النافع قد يتحول إلى سم قاتل إذا لم يجد العقـل الذي يقدر على تقبله، ولذلك قال رسولنا ﷺ: (ما أحد يحـدّث قوما بحديث لا تبلغه عقولهم إلّا كـان فتنـة على بعضـهم)[1]، وقال: (كفى بالمرء كذبا أن يحدّث بكل ما سـمع)[2]

وقبله قال المسيح عليه السلام: (لا تعلقوا الجــواهر في أعناق الخنازير، فـإن الحكمـة خـير من الجـوهر، ومن كرههـا

---

[1] قال الزين العراقي في المغني عن حمل الأسفار (ص: 70): رويناه في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخصر منه. وعنـد أبي داود من حـديث عائشة (أنزلوا الناس منازلهم)

[2] رواه مسلم ، 1/6.

فهو شر من الخنازير)[1]، ويدخل فيمن كرهها من لم يطقهـا، لأنه قد يستلمها، وهو مكره عليها، لا مطمئن لها.

وبعـدهما قـال وارث النبـوة الأكـبر، إمامنـا علي، منبـع الحكمـة، والسـراط المسـتقيم: (إن هاهنـا لعلومـا جمّـة لـو وجدت لها حملة)، فهل تـرى نفسـك ــ أيهـا الرفيـق العزيـز ـ أكثر حكمة من الإمام الذي ربـاه رسـول اللـه ﷺ على عينـه، وعلمه كيف يخاطب الناس، وكيف يراعي ضعفاءهم، ولـــذلك لم يبث كل ما لديـه من العلـوم، لأنـه لم يجـد من يمكنـه أن يفهمها، أو يتقبلها، أو لا تؤذيه.

قد تذكر لي ـ أيها الرفيق العزيز ـ مـا ورد في النصـوص المقدســة من التحــذير عن كتمــان العلم، وتقــول لي، وأنت ممتلئ ورعـا: كيـف أتوقـف عن بث علـومي، وقـد قـال اللـه تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى مِنْ بَعْــدِ مَــا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَــابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} [البقرة: 159]

وأنا أشيد بورعك، كما أشدت قبل ذلـك بعلمـك؛ ولكـني مع ذلك أذكـرك بـأن اللـه تعـالى نهى في الآيـة الكريمـة عن كتمان البينات، وهي الواضـحات اللاتي لا ينكـرهن إلا مكـابر، أما ما عداهن؛ فقد لا يكون العلم بهن أصلا علما نافعا، بل قد يكون ضارا، وأنت تحفظ عن رسول الله ﷺ غضبه عندما رأى كتابا من كتب اليهـود في يـد بعض بعض أصـحابه، وقـال لـه: (والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضـاء نقيـة، لا تسـألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصـدقوا بـه، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليـه وسـلم كـان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني)[2]

فاجعـل هـذا الحـديث العظيم نبراسـك الـذي تختـار بـه

---

[1] () إحياء علوم الدين (1/ 57)

[2] () مسند الإمام أحمد بن حنبل: 3/387 ح(15195)

دروسك ومواعظك وأحاديثك لعامة الناس.. ارفق بهم، واكتف بأن تريهم الأبيض الناصع الواضح البين، حتى لا تشوش رؤيتهم، ولا تفسد فطرهم، ولا تضر بسلامة أجهزة هضم المعارف في عقولهم.

وإن شئت سلفا لك في ذلك غير من ذكرت من الأنبياء والأئمة، فاقتد بذلك العالم الصالح الورع الذي سئل عن بعض المسائل الدقيقة، فلم يجب؛ فقال السائل: أما سمعت رسول اللّه ﷺ قال: (من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار)؛ فقال: اترك اللجام واذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليلجمنى، فقد قال اللّه تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ } [النساء: 5] تنبيها على أن حفظ العلم ممن يفسده ويضره أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق) [1]

ثم راح يردد:

أأنثر درّا بين سارحة	فأصبح مخزونا براعية
لأنهم أمسوا بجهل	فلا أنا أضحى أن
فإن لطف اللَّه	وصادقت أهلا للعلوم
نشرت مفيداً	وإلا فمخزون لدىّ
فمن منح الجهال	ومن منع المستوجبين

[1] () إحياء علوم الدين (1/ 57)

لا تسق مرضاك سما

أيها الرفيق العزيز.. لقد رأيتـك اليـوم تتحـدث إلى جمـع من الشباب عن رحمة الله الواسعة، وذكرت لهم أثناء حديثك أصناف الشفاعة التي تنتظر العصاة يوم القيامـة، وقـد بلغت بك الحماسة إلى أن أوردت لهم ذلك الحـديث العجيب الـذي حدث به بعضهم عن كعب، وأنـه ذكـر مـا تنتهي إليـه شـفاعة رسول الله ﷺ يوم القيامة؛ فذكر أنه (يشفع حتى يبلغ من لم يصل صلاة قط، ولم يطعم مسكينا قط، ومن لم يؤمن ببعث قط، فإذا بلغت هؤلاء لم يبق أحد فيه خير)[1]

وقد زاد في حماستك مـا رأيتـه من أولئـك الشـباب من انبهار واستزادة؛ فرحت تذكر لهم حديثا آخـر عن كعب يـذكر فيه (أن أمة محمد ﷺ ثلاثة أثلاث، فثلث يـدخلون الجنـة بغـير حسـاب، وثلث يحاسـبون حسـابا يسـيرا ثم يـدخلون الجنـة، وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد)[2]

وعندما طالبوك بأن تـترك الحـديث عن كعب، وتحـدثهم عن رسول الله ﷺ ذكـرت لهم قولـه: (مـا من مسـلم يتوضـأ فيسبغ الوضوء ثم يقوم فى صلاته فيعلم مـا يقـول إلا انفتـل وهو كيوم ولدته أمه من الخطايا ليس عليه ذنب)[3]

ثم عقبت عليه بقوله: (إذا مرض العبـد ثلاثـة أيـام خـرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[4]

---

[1] () رواه ابن مردويه، انظر: الدرالمنثور في التفسير للسيوطي ص6، ص286.

[2] () رواه ابن جرير الطبري في جامع البيان (20/465)

[3] () رواه الحاكم (2/433، رقم 3508)

[4] () رواه الطبرانى فى الصغير (1/314، رقم 19)

وهكذا ذكرت لهم الكثير من الأسباب التي تقوم بمحو كامل لصحيفة سيئاتهم من دون أن يبذلوا أي جهد، ولا يتكلفوا أي ندم أو توبة، وكنت تتصور وأنت تفعل ذلك أنك ترغبهم في الدين، وتملؤهم شوقا لله وتعظيما له، وقد ذكرت لهم في أثناء ذلك أولئك الذين سميتهم منفرين عن دين الله.. أولئك الذين يحدثون الناس عن عذاب القبر، والآلام التي تنتظرهم إن هم تجاوزوا حدود الله.

أعلم أنك فعلت كل ذلك بحسن نية، وأنك لم ترد منهم جزاء ولا شكورا، ولكنك لم تعلم ما فعل أولئك الشباب المراهقون بعد أن خرجوا من عندك.. نعم خرجوا وهم يحمدون الله على رحمته الواسعة، ولكن شكرهم لله كان يشبه شكر ذلك اللص الذي قبل يد الشرطي بعد أن كتم عليه كل جرائم اللصوصية التي قام بها، وقطّع ملفه، ولم يرسل به إلى المحكمة ليأخذ عقابه، وليرد ما سرقه لأصحابه.

لقد خرج ذلك اللص من مخفر الشرطة، وهو يسبح بحمد ذلك الشرطي، ويلقي قصائد الثناء على رحمته، لكن أولئك المساكين الذين انتهكت أعراض بيوتهم امتلأوا حقدا على الشرطي، لكونه رحم اللص، ولم يرحمهم، ومارس الرحمة في غير محلها، وقدم الرحمة على العدالة، وأتاح الفرصة لكل المجرمين ليملأوا الأرض فسادا وجورا.

أنت ـ أيها الرفيق العزيز ـ تشبه ذلك الشرطي في رحمته ولطفه ولينه.. والفرق بينكما أنه ربما يكون قد تعامل مع لص واحد بتلك الطريقة، وفي شؤون مادية قد لا تضر كثيرا، لكنك فعلت ذلك مع جمهور كبير، كان يمتلئ ورعا وتقوى ومخافة من الله؛ فرحت تزيح تلك الحواجز، وتمزق القوانين، لتتيح للرغبات المكبوتة أن تفعل ما يحلو لها، لا في الأمور المادية فقط، وإنما في غيرها أيضا.. لذلك كان ذلك الشرطي أكثر رحمة وعدالة منك.

قد لا يكون كلامي ذا أهمية بالنسبة إليك، ولذلك أدعوك

لقراءة كلام ربك، لترى كيف يمزج الله رحمته بعدله وغضبه حتى يردنا إلى حد الاعتدال؛ فالله تعالى يأمر رسوله ﷺ بقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ } [الحجر: 49، 50]، فلذلك لا يصح أن تنبئ العباد عن رحمة الله، ثم تقصر في ذكر عقوباته لمن قصر في تربية نفسه وتهذيبها.

وأدعوك ــ أيها الرفيق العزيز ــ إلى الاهتداء بهدي رسولكﷺ في ذلك، فهو سيد الدعاة والهداة؛ فهكذا كان يربي أمته، ويقول لهم محذرا: (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار)[1]، ويقول لهم:(من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[2]

وهكذا علمنا أئمة الهدى؛ فالإمام علي يصف العالم الحقيقي؛ فيقول: (إنّما العالم الّذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله)[3]

أما ما ذكرت من الدعوة لحسن الظن بالله؛ فذلك صحيح، ولكن تعلّم من نبيك ﷺ كيف تُعلم جمهورك حسن الظن بالله، حتى لا يلغي حسن الظن بالله الأمن من عذاب الله، وحتى لا يلغي الرجاء في رحمة الله الخوف من عقاب

---

[1] () رواه أحمد 2/303 (8016) ، ومسلم 4/ 1997،.

[2] () رواه البخاري 5 / 73.

[3] () رواه الكليني في الكافي ج 1 ،ص 36.

الله؛ ففي الحديث أن رسول الله ﷺ خطب على المنبر؛ فقال: (والّذي لا إله إلّا هو ما أعطي مؤمن قطّ خير الدّنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه باللّه ورجائه له وحسن خلقه والكفّ عن اغتياب المؤمنين، والّذي لا إله إلّا هو لا يعذّب الله مؤمنا بعد التوبة والاستغفار إلّا بسوء ظنّه باللّه وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين، والّذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن باللّه إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن لأنّ الله كريم بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثمّ يخلف ظنّه ورجاءه، فأحسنوا باللّه الظنّ وارغبوا إليه)[1]

فانظر كيف مزج رسول الله ﷺ في هذا الحديث بين الرجاء والخوف، وبين الدعوة لحسن الظن بالله في نفس الوقت الذي دعا فيه إلى مراعاة حسن الخلق والالتزام بالشريعة..

إذا فعلت هذا ـ أيها الرفيق العزيز ـ وتخليت عن مراعاة جمهورك، ولم تكن عبدا لطلباتهم، واستننت بسنة نبيك ﷺ وخلفائه الراشدين تكون من الذين أخذوا بالكتاب جميعا، وإذا لم تفعل فلا يمكن أن أجد لعملك تشبيها مثل ما ذكره القرآن الكريم عن اليهود الذي عاتبهم الله تعالى، فقال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]

كما عاتبهم عندما زعموا أنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودة، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:80]

وأنت ـ أيها الرفيق العزيز ـ أعفيت جمهورك حتى من تلك الأيام المعدودة؛ فضمنت لهم النجاة، بل ضمنت لهم

---

[1] بحار الأنوار، ج 16 ص 189.

الجنة، ولو لم يفعلوا سوى أن يمرضوا ثلاثة أيام، أو يتوضـؤوا وضوءهم للصلاة أو لغير الصلاة.

لا تجرح مشاعر غيرك

أيهـا الرفيـق العزيـز.. سـمعت أنـك حـدثت اليـوم بعض القــوم عن ولــدك، وشــطارتهم، وذكــائهم، ونجــاحهم في دراستهم وأعمـالهم، وأنهم قـرة عينـك، وفلـذه كبـدك، وأنـك مسرور بهم غاية السرور، وتحمد اللـه على منتـه عليـك بهم، وختمت حـديثك بمـا ذكـره اللـه تعـالى عن عبـاد الـرحمن، وقولهم في دعائهم: {رَبَّنَا هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَـا قُـرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } [الفرقان: 74]

وعلمت أنـك قبـل فـترة نشـرت صـورتك، وأنت بكامـل قوتك، وأمامك مكتبة فخمة مزينة بكل أنـواع التحـف، وكتبت تحتها: هـذه صـورتي، وأنـا في مكتـبي، وأنـا بحمـد اللـه أنعم بكامل صحتي وعافيتي، وأسأل الله أن يديمها علي.

وقبل فترة نشرت صورا للأوسمة التي قلـدها لـك بعض الوجهـاء، وذكـرت أنهـا ثمـرة لجهـدك الطويـل في خدمـة المجتمع، وأنها حق طـبيعي من حقوقـك تـأخر وصـوله إليـك، بسبب عدم التفهم.

وكنت كل حين تنشر شهاداتك، وصورا عن بيتك الجديد، وسـيارتك الفخمـة، وزوجتـك الـتي لـولا حجابهـا والتزامهـا لرشحت ملكة لجميلات العالم، وهكذا لم تترك نعمة من نعم الله عليك إلا حدثت بها، وسمعها الناس منك.

وعندما عاتبك بعضهم في هـذا، قـرأت لـه قولـه تعـالى: { وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَـدِّثْ} [الضـحى: 11]، وأنـا لا أريـد أن أجادلك في هذا؛ فما قرأته قرآن كـريم، ولا يصـح لمـؤمن أن يجادل في حقائق القرآن، أو يضرب بعضه ببعض.

لكني أريد أن أذكـر لـك فقـط بـأن بعض الـذين سـمعوا حـديثك عن ولـدك ونجـاحهم في دراسـتهم وحيـاتهم، كـانوا محرومين من نعمـة الأولاد، وبعضـهم كـان لهم أولاد عـاقون، وبعضهم كـان لهم أولاد راسـبون، وكلهم تـألموا من حـديثك،

وجرحت مشاعرهم به مع أنك لم تقصد إذيتهم.

وهكذا كان حديثك عن زوجتك وبيتـك وشـهاداتك.. كلهـا صادف قوما من الناس لم تكن لهم كل تلك النعم الـتي أنعم الله بها عليك، والتي رأيت أنك ملزم بـذكرها، وكأنـك حمـدك لله تعالى لا يتم إلا بذكرها، وعلى الملأ.

ولست أدري هل الآية القرآنية تـدعو إلى مـا فهمتـه من ذكر تلك النعم الحسية الماديـة الـتي أوردتهـا، أم أنهـا تقصـد النعمة العظمى نعمة الإسلام(1) التي عبر عنهـا قولـه تعـالى: {الْيَـــوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِـــيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة: 3]

وهكذا عندما ذكر القرآن الكريم النعم التي أنعم الله بها على المسـيح عليـه السـلام ذكـر أمـورا في جـوهر رسـالته، فقال: { إِذْ قَـالَ اللَّهُ يَاعِيسَـى ابْنَ مَـرْيَمَ اذْكُـرْ نِعْمَتِي عَلَيْـكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِـرُوحِ الْقُـدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْـدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْـرًا بِـإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَـهَ وَالْأَبْـرَصَ بِـإِذْنِي وَإِذْ تُخْـرِجُ الْمَـوْتَى بِـإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْـرَائِيلَ عَنْـكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ فَقَـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } [المائدة: 110]

ولســت أدري كيــف يمكن لامــرئ يســمع حــديثك عن نفسك، أن يطبـق قولـه ﷺ: (إذا نظـر أحـدكم إلى من فضـل عليه في المـال والخلـق، فلينظـر إلى من هـو أسـفل منـه)، وفي رواية: انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظــروا إلى من هو فـوقكم، فهـو أجـدر أن لا تـزدروا نعمـة اللـه عليكم)، وفي روايــة: (انظــروا إلى من هــو أســفل منكم في الــدنيا،

---

(1) سئل الإمام الحسين عن عن تفسير قولـه تعـالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَـةِ رَبِّكَ فَحَـدِّثْ) [الضحى: 11]، فقال: (أَمَرَهُ أنْ يُحـدِّث بِمَـا أنْعَم اللـهُ بِـهِ عَلَيـهِ فِي دِينِـه)، وروي عن الامام الباقر في تفسير قوله تعالى (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً) (لقمـان/20) قال: (النعمة الظاهرة النبي ﷺ، وما جاء به النبي من معرفة الله عز وجـل وتوحيـده، وأما النعمة الباطنة ولايتنا أهل البيت وعقد مودتنا)

وفـوقكم في الـدين، فـذلك أجـدر أن لا تـزدروا نعمـة اللـه عليكم)[1]

وقد عقب بعض رواة الحديث عليه بقوله ـ يذكر تجربتـه ـ (كنت أصحب الأغنياء فما كان أحد أكثر هما مني، كنت أرى دابة خيرا من دابتي، وثوبا خيرا من ثوبي، فلمـا سـمعت هـذا الحديث صحبت الفقراء فاسترحت)

وراوي الحديث يعبر ـ بكل صراحة ـ عنـك وعن أمثالـك، ممن لا يبالون بمشـاعر المحـرومين والمتـألمين، ويتصـورون أنهم يحمدون الله بفعلهم ذلك، وهم لا يعلمون أن اللـه يمكن أن يُحمـد جملـة من غـير تفصـيل، ويمكن أن يحمـد بـذكر أسـمائه الحسـنى وصـفاته العليـا، لا بـذكر أسـماء الأولاد، وأوصاف البيوت.

ولذلك كان أقرب اسم لذلك الفعل الذي قمت به ـ أيهـا الرفيق العزيز ــ هـو لقب [الفخـر والمباهـاة] لا لقب الحمـد والشكر، لأننا لو طبقنا ما فعلتـه، لوجـدنا أقـرب النـاس إليـه قارون، ذلك الذي خرج على قومه في زينته، وأراهم كـل مـا لديه من صنوف النعمة، ومع أنك لم تخرج مثلما خـرج، ولكن كلماتـك رسـمت لجمهـورك مشـهدا لا يختلـف عن مشـهد قارون، ولذلك قال كل من أحاط بك: يا ليت لنا مثلما أوتيت، كما قال من شاهد قارون: {يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [القصص: 79]

ولهذا كان الرسل والأئمة والأولياء أكـثر النـاس تواضـعا وأدبا ومراعـاة لمشـاعر الآخـرين، وقـد قـال رسـول اللـه ﷺ لرجل رآه؛ فأخذته مهابة منه: (هون عليك فإني لست يملـك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد) [2]

---

[1] رواه أحمـد (2/413) والبخـاري (8/128) ومسـلم (8/213) والترمـذي (2513)

[2] رواه ابن ماجه (3312)

فأنت مخير بين أن تكون مثل قارون الذي خرج على قومه في زينته وبين رسول الله ﷺ الذي مثل التواضع والعبودية والبساطة أحسن تمثيل، وكان يردد كل حين: (إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد)[3]

---

(3) رواه مسلم (2865)

لا تنس أسماء ربك

أيها الرفيق العزيز.. لقد أعجبني كثيرا ماحدثت به البارحة عن أهمية التعرف على أعلام العلماء، وفي جميع المجالات، لما تكسبه تلك المعرفة لأصحابها من علو همة، ومن تعرف تفصيلي على تاريخ العلوم، والمسارات التي سارت عليها، والإنجازات التي تمت فيها.

وقد أعجبني كذلك ما ذكرته عن نفسك، ومعرفتك لآلاف العلماء والفلاسفة والمفكرين والباحثين والمخترعين، وأنهم أصبحوا بالنسبة لك كالأصدقاء والأصحاب لا يكادون يفارقونك.

وذكرت أنك تتسلى بهم أكثر مما تسلى بمن يحيط بك من البشر، وأنه إذا مر عليك اسم أحدهم شعرت بقلبك يخفق شوقا إليه، وحنينا لذكره.

وذكرت في المقابل أنك تشعر بخجل عظيم إن ذُكر اسم فيلسوف أو مخترع أو عالم ثم لا يكون لك معرفة به، أو بمنجزاته، أو بالخدمات التي قدمها للإنسانية.

وكل ما ذكرته جميل، ويدل على أنك صاحب عقل كبير لا يعيش زمانه وواقعه فقط، وإنما يعيش كل الأزمنة، وكل الأمكنة، وكل التاريخ، وكل الجغرافية.

وأنا لا أريدك أن تنسى ما تعلمته من أسماء، أو تتوقف عن تعلمه، ولكني أريد أن أدلك على أسماء أخرى تحتاج إلى التعرف عليها، وهي أسماء تتجاوز الأزمنة والأمكنة، وتتجاوز الأرض والسماء، وتتجاوز التاريخ والجغرافية، بل تتجاوز كل شيء، ومن دونها لا يكون أي شيء.

أريدك ـ أيها الرفيق العزيز ـ كما بذلت كل جهدك في التعرف على أسماء الأعلام، ومنجزاتهم، أن تتعرف على أسماء ربك، فكل ما تراه من منجزات في الكون، هي

منجزات أسماء الله الحسنى؛ فأسماء الله هي المفاتيح الـتي تُفهم بهـا حقـائق الوجـود والكـون والحيـاة والإنسـان وكـل شيء.. بل لا يمكنك أن تفهم سـر مـا تعرفـه من أسـماء من دون أن تمر على أسـماء اللـه الحسـنى، تلـك الـتي بـني بهـا الكـون، ولولاهـا لم يكن شـيء في الأرض ولا في السـماء، وفي المكان أو في الزمان، أو في اللامكان ولا زمان.

فلولا اسم الله البديع والمصور والجميل، والـذي تـزينت به أقطار السموات والأرض، ما رأيت لونا ولا صورة ولا شـيئا جميلا، ولا رأيت بعـد ذلـك فنانـا، ولا مطربـا، وكيـف يمكن للفنان أن يبدع في رسمه أو شعره أو فنه، وهو لا يجد جمـالا يشحن به ذوقه، أو يعبر به عما رآه؟

فلـذلك قبـل أن يهـزك الطـرب عنـد ذكـر أسـماء أعلام الفنون الجميلة؛ فليهزك الطرب والشوق لاسـم ربـك البـديع المصور الجميل الذي لولاه ما كنت صورة، وما كان فن، ومـا كان للجمال محل في الكون.

وإن شئت أن ترتقي في سـلم المعـارف قليلا، فتنسـب الأمور إلى أهلها، وتترك الجحود ونكـران الجميـل؛ فلتعلم أن كل إبداع فني في الكون هو إبداع لخالق الكـون.. ولـذلك إن صح أن تشتاق لشيء، فليكن شـوقك إليـه، وإن صـح أن تملأ قلبك بحب شيء، فليكن حبـك كلـه متوجهـا إليـه؛ فلـولاه لم يكن شيء.

ولذلك من الغبن أن تحفظ كل أسماء الفنانين، ثم يغيب عنك اسمه، لأنه لولا اسمه لكانت كل تلـك المسـميات الـتي تحفظ أسماءها مجرد أشباح وهياكل لا حياة فيها.

وهكذا؛ فـإن كـل أسـماء الفلاسـفة والمفكـرين والعقلاء التي تحفظها ليست سوى نفحـات من أسـماء اللـه الحسـنى التي لا نهاية لعطائها وكرمهـا وجودهـا، فلـذلك لـك أن تفـرح بتلك الأسماء، ولكن مصحوبة باسم مبدعها وملهمها ومعلمها، فلولاه لكان كل من تراهم من عقلاء مجرد مجانين وصعاليك

في الشوارع، لا قيمة لهم، ولا علوم لديهم، ولا عقل يفكرون به، لأن العقل ليس أداة إنتاج، وإنما هو أداه استقبال.

وهكـذا؛ فـإن كـل أسـماء المخـترعين وعلمـاء الفيزيـاء والفلك والطب.. وكل العلوم ليسوا سوى عيال أمـام حضـرة أسماء اللـه الحسـنى، يتلقفـون منهـا المعـارف، ويسـتفيدون منها العلوم، ولولاها لم يكونـوا.. ولـذلك من الغبن أن تعـرف أسماء التلاميذ، ولا تعرف اسم معلمهم.

ومن الغبن أن تمضــي حياتــك كلهــا في التعــرف على الظلال، ثم لا تعرف مصـدرها، ولا حقيقتهـا، ولا منبعهـا الـذي منه خرجت، وإليه تعود.

لذلك ـ أيها الرفيق العزيـز ــ وجـه همتـك قليلا للتعـرف على الأسماء الحقيقية، لا الوهمية؛ فإنها وحـدها الباقيـة، ومـا عداها فان.. وإياك أن تجعل تلك الأسماء الوهمية أندادا تحبها من دون الله، فلولا اللـه لم يكن شـيء، فـانطلق منـه إليهـا، لتعرفها على حقيقتها، لا على ما تزينت به، لأن كل ما تـزينت به وهم وسراب سـرعان مـا تكتشـفه بنفسـك، حين يكشـف عنك الحجاب، وترفع عنك الأوهام.

لا تنشغل بما لا ينفعك

أيها الرفيـق العزيـز.. لسـت أدري هـل مـا سـأقوله لـك سيعجبك أم لا، لكني مضطر لأن أقوله، ولا يهمني ما سيكون موقفـك مـني، حـتى لـو رميتـني بـالجمود والبلادة والتخلـف والتطرف؛ فأنـا أقبـل كـل ذلـك منـك.. ولكـني لا أتنـازل عن مقالتي التي أريد أن أوجهها لك، والتي أوقن أنها لن تعجبــك، وأنت كما تعرفني لا أهتم بما يعجبك أو ما لا يعجبك؛ فالنصـح الذي يمتلئ بالمجاملات غش وخديعة.

وقبل أن أذكر لك نصيحتي أريد أن أسالك، وأنت صاحب العقل الراجح والفكر النير عن مدة بقائنا في الدنيا، ولا شـك أنـك سـتجيب بالبداهـة الـتي أعرفهـا عنـك؛ فتقـرأ لي قولـه تعالى، وهو يـذكر النتيجـة الـتي وصـل إليهـا أهـل الـدنيا بعـد ذهابهم للآخرة: {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِـنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَـوْمٍ فَاسْـأَلِ الْعَـادِّينَ (113) قَـالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَـوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُـونَ} [المؤمنــون: 112 - 114]

ثم تذكر لي بعـدها مـا تعودتـه عنـك من ربـط النصـوص المقدسة بحقائق العلم؛ فتذكر لي أن هذه الكلمات القرآنيــة حقائق يعرفها العلماء، وأنه لو وضعنا مدة عمر البشر جميعـا أمام عمر الكون، أو أمام الزمن اللامتنـاهي؛ فإنـه سيتشـكل لدينا رقم صغير جدا يكـاد يكـون صـفرا.. هـذا بالنسـبة لعمـر البشر جميعا، فكيف بعمر كل واحد منا؟

وحينها سأسألك عن هـذا العمـر القصـير، ومـا يمكن أن ينتج عنه من نتائج مرتبطة بالأزل والأبد، وحينهـا سـتقرأ علي من النصوص المقدسة ما يدل على عظم غبن من فـرط في هذه الفرصة التي تبنى بها القصور، وتستغرس بها كـل أنـواع النعم، وتقرأ علي من ذلك قوله تعالى: { يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَـوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن: 9]

وتقرأ علي بعدها ذلك التحسر الذي يصيب أهل النار عندما يعاينون النعيم الذي يعيشه أهل الجنة، كما قال تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام: 31]

وقد تذكر لي حينها كيف تحولت أعمال المؤمنين إلى أنوار يهتدون بها في عالم الآخرة، في نفس الوقت الذي يعيش فيه المستغرقون في الدنيا في عالم الظلمات المطبقة، لكونهم لم يشحنوا بطارياتهم في الدنيا لتمدهم بالنور في الآخرة، كما قال تعالى مشيرا إلى ذلك: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (13) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ } [الحديد: 13، 14]

وحينها سأسألك ملغزا، مختبرا ذاكرتك عن تلك القصة التي حكاها لنا معلم التربية، حين كنا صبية صغارا؛ فذكر لنا أن رجلا قال عند موته: (يا ليتها كانت كثيرة.. يا ليتها كانت الجديدة.. يا ليتها كانت كاملة)

وحينها ستجيبني بالبداهة التي أعرفها عنك؛ فتذكر لي أنه يشير بقوله: (يا ليتها كانت كثيرة) إلى جاره الأعم، وأنه كان يأخذه كل يوم إلى المسجد، وعندما عاين ثواب هذا العمل عند دنو أجله، قال: (يا ليتها كانت كثيرة تلك الخطوات التي أخطوها برفقة جاري الأعمى لتكون حسناتي أكثر)

وتذكر لي أنه يشير بقوله: (يا ليتها كانت الجديدة) إلى أنه كان لديه خفّان، أحدهما قديم، والآخر جديد؛ فتبرع بالقديم، فعندما وجد ثواب هذا العمل عند دنو أجله، قال:(يا ليتها كانت الجديدة؛ فلو كانت الجديدة لكان الثواب أكبر وأعظم)

وتذكر لي أنه يشير بقوله: (يا ليتها كانت كثيرة كانت كاملة) إلى أنه كان يتصدق في كل يوم بنصف رغيف؛ فعندما وجد ثواب هذا العمل عند دنو أجله، قال: (يا ليت تلك الأرغفة كانت كاملة)

وحينها سأسألك عن سر ذلك الرجل الصالح الذي حكى لنا قصته ذلك العجوز الذي التقينا به صدفة في القطار، وحدثنا عن قيمة الوقت، وأن كل لحظة يمكننا أن نكسب بها سعادة الأبد، وحينها ستجيبني بما أعرفه من ذاكرتك القوية؛ فتقول: إنه ذلك الرجل الذي كان يختار الطعام اللين الذي لا يحتاج إلى مضغ؛ فعندما سئل عن سر ذلك، قال: (حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحة؛ فما مضغت الخبز مند أربعين سنة)[1]

وطبعا أنا لا أريدك أن تكون مثله، ولا أن تفعل فعله، فهناك الكثير من الأطعمة الطيبة التي أباحها الله لنا، والتي تحتاج إلى المضغ؛ وما خلق الله لنا الأسنان إلا لنستعملها، ولم يجعل الله لنا أسوة إلا بالأنبياء والمرسلين والأئمة المطهرين..

ولكني أريد أن أسألك عن عينيك اللتين تقضيان وقتا طويلا في مشاهدة المباريات والأفلام والمسلسلات، والتي تحضر معها كل لطائفك وأركان حقيقتك.. كم تسبيحة منعتك تلك المباريات؟.. وكم علما صرفتك عنه؟.. وكم فكرا نافعا حالت بينك وبينه؟.. وكم قصرا كان يمكن أن يُبنى لك في تلك اللحظات قصرت في بنائه؟

وليت الأمر اقتصر على تلك المباريات أو الأفلام أو المسلسلات.. بل هناك شؤون كثيرة، ومشاغل طويلة، تقضي على أعمارنا من غير أن نشغلها بشيء ينفعها..

نعم.. هي مباحات كما تذكر، وأنا لست ممن يحرم الحلال، أو يحلل الحرام، ولكني أسألك عن سر ذلك الإذعان

[1] إحياء علوم الدين (3/ 86)

التام لكل اللطائف عند تطبيقها لشرائع المباحـات، في نفس الوقت الذي تتثاقل فيه على شرائع الواجبات والمسـتحبات.. فهل جاءت الشريعة لتعلمنا كيف نمـارس المبـاح، أم جـاءت لترفعنـا إلى ثقـل الواجبـات والمسـتحبات وكـل التكـاليف الشرعية؟

أنـا لا أريـد من حـديثي هـذا أن أعظـك أو أذكـرك أو أوصيك؛ فأنا مثلك وربما أكثر منـك تقصـيرا، ولكـني أريـد أن أكشـف الحقيقـة الـتي نحـاول أن نشـغل أنفسـنا عنهـا بتلـك اللعب؛ فالبشر جميعا ـ كما قال رسول الله ﷺ ـ: (كل الناس يغدو، فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها)[1]

وقد قال قبل ذلك مذكرا ومعلما وهاديا: (الطهور شـطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان اللـه والحمـد للـه تملآن ــ أو تملأ ــ مـا بين السـموات والأرض، والصـلاة نـور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجـة لـك أو عليـك)، ليعلمنا أن كل لحظة يمكننا أن نرتاد بها فضـاء الحقـائق، وأن نصل بها إلى كل الكمالات.

فالحمد لله ـ كما ذكر رسـول اللـه ﷺ ـ وحـدها تملأ مـا بين السماء والأرض، ونحن يمكننا أن نقولهـا عشـرات الآلاف من المـرات في الـوقت الـذي نقضـيه في مشـاهدة مبـاراة واحدة، لا نتلذذ منهـا إلا كمـا يتلـذذ المجنـون بقضـم أصـابعه، ونحن أيضا في تلك اللحظات لا نختلف عن ذلك المجنون، بل نحن أشد جنونا منه، فهو غير مكلف، وهو لا يقضـم إلا أصـابع سـرعان مـا تفـنى، أمـا نحن الـذين نـدعي العقـل؛ فنقضـم أعمارنا، ونقضم أرواحنا وحقائقنا ولطائفنـا، ونملؤهـا بـالفراغ القاتـل، ويـوم القيامـة نعض أصـابعنا من النـدم على ذلـك الوقت الذي قضيناه في ذلك الجنون الذي لم نسـتفد منـه إلا قسوة القلب، وضياع الوقت، وفقدان النور.

---

[1] () رواه مسلم رقم (223) في الطهارة، باب فضـل الوضـوء، والترمـذي رقم (3512)

وقد ورد في بعض الآثار ما يصور حقيقة ما سيحصل في الآخرة من الندم والغبن الذي يشعر به كل الخلائق حتى المؤمنين منهم، فقد ذكر أنه (ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار، ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار، ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة، يفوح نتنها، ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله فيها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهي الساعة التي نام فيها، أو غفل، أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير، إذا أهمله وتساهل فيه حتى وفاته)(1)

أنا لا أريدك ـ أيها الرفيق العزيز ـ أن تعتزل الدنيا، أو تعتزل المباح، أو تقضي على كل لحظة أنس وراحة في حياتك؛ فذلك غير ممكن، وقد يضرك ذلك أكثر مما ينفعك، ولكني أذكرك بما قاله إمام المتقين، ويعسوب الدين، موصيا ابنه الإمام الحسن: (يا بني، للمؤمن ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه ولذتها فيما يحل ويجمل، وليس للمؤمن بد من أن يكون شاخصا في ثلاث مرمة لمعاش، أو خطوة لمعاد، أو لذة في غير محرم)(2)

وإن شئت أن يكتب الله لك تلك الساعة التي تتفرغ

---

(1) أورده في بحار الأنوار، ج 3 ص 267 في الهامش من كتاب عدة الداعي، وأورده الغزالي في إحياء علوم الدين (4/ـ 395) باعتباره حديثا نبويا، لكن ذكر الحافظ العراقي أنه لا أصل له.

(2) نهج البلاغة / 545 حكمة 390..

فيها للمباح من اللذات، فانو بها القـوة على الطاعـة، لتجعـل حياتك كلها في سبيل الله، وحينها يمكنك أن تقرأ هـذه الآيـة، وتصـدق في قراءتهـا: { قُـلْ إِنَّ صَـلَاتِي وَنُسُـكِي وَمَحْيَـايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَـهُ وَبِـذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)} [الأنعام: 162، 163]

أيها الرفيق العزيـز.. لقـد كنت تـذكر لي، وربمـا لغـيري أيضا، كل حين الوقائع الكثيرة التي حصلت لك، والتي جعلتك موقنـا تمامـا من تـأثير العين، وأنـه لا يجـادل في إنكارهـا إلا مكابر.

وأنا لا أريد أن أجادلك فيها، وكيف أجادلـك، وأنت تـروي لي كل حين الأحاديث الواردة بشأنها، والـتي حفظتهـا جميعـا عن طريقـك، وبسـندك، ومنهـا (العين حـق، ولـو كـان شـيء سابق القدر لسبقته العين)[1]، و(العين تـدخل الرجـل القـبر، وتدخل الجمل القدر)[2]، و(أكثر من يمـوت من أمـتي ــ بعـد قضاء الله وقدره ـ بالعين)[3]، و(إن العين لتولع بالرجل بإذن اللــه، حــتى يصـعد حالقـا، ثم يـتردى منــه)[4]، وغيرهـا من الأحاديث والآثار.

وأنا لا أريد أن أجادلك في مدى صحة هذه الأحاديث، ولا من هم رواتهـا، ولا في اتصـال سـندها أو انقطاعـه، ولا في موافقتها لما في القرآن الكـريم من حقـائق الوجـود، وسـنن الكـون أو معارضـتها لـه، ولكـني أريـد أن أدلـك على أسـباب أخرى قد تكون هي وراء ما يحصل لك كل حين.

وهذه الأسباب التي أريد أن أذكرها لك ليست لها علاقـة بجارك الذي تتهمه بأنه أصابك بالعين، ولا علاقـة لهـا بالرقـاة

[1] رواه البخاري 10 / 319 ، ومسلم رقم (2187)

[2] رواه أبو نُعيم في الحلية، انظر: المقاصد الحسنة (ص: 470)

[3] قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (5/ـ 106): رواه البزار، ورجالـه رجـال الصحيح.

[4] قال في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (5/، 106): رواه أحمد، والبزار، ورجال أحمد ثقات.

الــذين تحضــرهم كــل حين لتســلمهم مــا لــديك من مــال، ويسلموك ما لديهم من خبرة في ضـبط الأعين الخارجـة عن القانون.

وإنما لها علاقة بك أنت؛ فقد تكون أنت سبب ما حصــل لك، لا عين غيرك التي تتهمها جزافا، ومن غـير دليـل، سـوى تصورك أنهم لم ينظروا إليك إلا نظرة حسد.

ولا تخف، فأنا أيضا مسلح بنصـوص مقدسـة لا تقـل عن النصوص التي اسـتدللت بهـا في اتهـام غـيرك، وهي نصـوص متفــق عليهــا، وليس هنــاك مخــالف فيهــا، وهي فــوق ذلــك منسجمة مع حقائق الوجود، وسنن الكون.

وتلك الأسباب ـ مهما تفرقت أصنافها، وتباينت أنواعهـا ـ ترجع لكسبك وعملك وأفعالك التي خالفت فيها شريعة ربك، وتعــديت حــدوده، وأنت تعلم أن التعــدي على حــدود اللــه لا يختلف عن التعدي على قـوانين الفيزيـاء والكيميـاء والحيـاة؛ فكما أنك إذا لمست تيار الكهربـاء تصـاب بالصـعقة، وبـالألم، حتى لو لم يصبك أحد بعين؛ فكـذلك القـرب من حـدود اللـه، وانتهاكهــا يــؤدي إلى نفس الصــعقة، ويكــون الألم والمصــيبة بقدر شدة المعصية، وعظمتها.

فلــذلك بــدل أن تتهم جــارك المســكين، أو ترســل إلى الرقــاة ليبحثــوا لــك عن الجنــاة، ابحث في سـجل أعمالــك، وانظــر إلى كــل ســلوك ســلكته، أو فعــل فعلتــه، أو موقــف وقفته، أو قول قلته، أو نظرة أرسلتها، فلعـل بلاءك كـان في ذلك السلوك، أو ذلك الموقف، أو تلك النظرة.

فإن وجدت سجلك نظيفا؛ فانظر إلى موقفك أو موقــف قلبك من أولئك الذين اتهمتهم بأنهم أصابوك بعيونهم، فلعلــك أسأت الظن بهم، والظن أكذب الحديث، أو لعلك تحمل بعض الحقد عليهم، والحقد معصية من المعاصي التي يتنزل بسببها البلاء؛ فلذلك قـد يكونـون هم سـبب بلائـك، ولكن لا بعيـونهم التي تتهمها من غير دليل، وإنما لموقفك الحاقد عليهم.

ربما قد يجعلك هذا الحديث تتهمني أنا أيضا برد النصوص المقدسة، وتلك الأحاديث التي رويتها، ومعاذ الله أن أفعل ذلك، ولكني امرؤ شديد الحيطة، وأخاف أن أترك أسبابا واضحة معلومة دقيقة متفقا عليها إلى أسباب وهمية، قد تكون وساوس شيطانية، أو بنات لخدع النفس الأمارة، والتي تريد أن تخلص نفسها من كل تهمة، لترميها على غيرها، وتستريح.

لقد رجعت ـ أيها الرفيق العزيز ــ إلى كلام ربي الذي لا يختلف اثنان في صحته وقدسيته، لأسأله عن أسرار كل المصائب التي حصلت في تاريخ البشرية؛ فلم يذكر لي العين، وإنما ذكر لي المعاصي والذنوب والجرائم، وأعطاني سنة ذلك؛ فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد:11]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: 53]

وعندما سألته عن سر ذلك الدمار الذي أصاب القرى؛ فحولها من النعيم إلى العذاب، ومن السعادة إلى الشقاء، لم يذكر لي العين، وإنما أجابني بقوله تعالى: ﴿ إِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16]، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: 96]، وقوله: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق: 8، 9]

وعندما سألته عن سر الفساد السياسي والاجتماعي والاقتصادي والبيئي، وكل ما تعانيه البشرية من مآس، لم يذكر لي العين، وإنما أجابني بقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:41]، وقوله: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} [المائدة: 49]، وقوله: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} [الأعراف: 100]

وعندما سألته عن سر ما حصل لقارون ذلك الغني المترف الذي آتاه الله { مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ} [القصص: 76]، لم يذكر لي عيون المؤمنين، ولا عيون الكافرين، وإنما ذكر لي كبرياءه وفخره وخيلاءه، والذي جعله يسكن باطن الأرض، بعد أن تكبر على ظاهرها.

وعندما سألته عن سر تلك المصائب التي حصلت لصاحب الجنتين الممتلئتين بكل أصناف الثمار والجمال، لم يذكر لي صاحبه المؤمن الذي كان يحاوره، وإنما ذكر لي طغيانه وتأليه على الله، وإعجابه بنفسه وببساتينه؛ فلم تكن عين المؤمن هي التي أصابته، وإنما كانت عينه الشرهة للدنيا المتثاقلة إليها هي السبب، وقد عبر هو نفسه عن ذلك حين { أَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا } [الكهف: 42]

وعندما سألته عن سر ما حصل لأصحاب الجنة، تلك التي { طَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)} [القلم: 19، 20] أجابني بأنهم رغم أخطائهم الكبيرة التي وقعوا فيها، لم ينسبوا الأمر للعين، وإنما نسبوه لأنفسهم، وقالوا ــ بعد أن قرأوا رسالة الله لهم ـ:{ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32)} [القلم: 31، 32]

وعندما سألته عن سر ما حصل لثمود وعاد تلك القبائل البائدة، أجابني بأنه لا علاقة لكل ما حصل لهم بالعين، بل هي أعمالهم التي عبر عنها الله تعالى بقوله: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (4) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (5) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (7) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (8) } [الحاقة: 4 - 8]

وعندما سألته عن سر ما حصل لفرعون ومن معه من المصريين من الهلاك، أجابني: {وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (9) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً } [الحاقة: 9، 10]

وعندما سألته عن سر ما حصل لسبأ، وتفرقها في الأرض شذر مذر، وتحولها من النعيم إلى البلاء، ومن السعادة إلى الشقاء، أجابني بأنه لا علاقة لكل ما حصل لهم بالعين، وإنما هي أعمالهم التي عبر عنها الله تعالى بقوله: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ } [سبأ: 15 - 17]

وهكذا رحت أسأله عن كل مصيبة حصلت، وكل بلاء تنزل، ولم يجبني في واحدة منها بعلاقة العين بذلك، ولذلك لا يمكنني أن أترك هذه الإجابات القرآنية الصريحة الواضحة، وأستمع إلى إجابتك.

قد تتهمني ـ أيها الرفيق العزيز ـ بإنكار السنة، أو بضرب السنة بالقرآن، ومعاذ الله؛ فأنا أضعف من أن أنكر سنة رسول الله ﷺ، وأنا لم أقل لك أبدا: إن رسول الله ﷺ لم يذكر تلك الأحاديث التي رويتها؛ فليس لدي من علم الرجال والجرح والتعديل ما يؤهلني لإنكار ذلك، ولكني عجبت من تركك للواضحات القطعيات المتفق عليها، وذهابك للظنيات المختلف فيها.

وأنا لا أقصد ـ كما قد تتوهم أيها الرفيق العزيز ـ بالظنيات تلك الأحاديث التي ذكرتها، وإنما أقصد تصورك

وتوهمك أن سبب ما حصل لك من بلاء هو عيون الناس المسلطة عليك؛ فذلك في أحسن أحواله تهمة تحتاج إلى دليل، ولا يمكن لذلك الراقي المسكين، الممتلئ بكل أنواع الضعف والقصور أن يشق على قلوب الناس، أو يطلع على اللوح المحفوظ ليخبرك أن ما حصل لك سببه العين.

فلذلك دع الخلق للخالق، وانشغل بنفسك، وبالبحث في سجلات أعمالك؛ فلعلك تبصر الفيروس الذي دمر حياتك، أو المغناطيس الذي جلب ذلك البلاء إليك، لتواجه الحقيقة التي تحاول إخفاءها، ويعينك دجاجلة الرقاة على ذلك.

ولا بأس ـ أيها الرفيق العزيز ــ إن كنت صاحب حيطة ونظر أن تعتبر العين سببا من أسباب ما حصل لك، مع الأسباب التي ذكرها القرآن الكريم، لكن إياك أن تعتبرها السبب الوحيد، وإياك أن تتهم أحدا بها، حتى لا تقع في الظلم والجور وسوء الظن.

وفي هذه الحالة لست في حاجة لإحضار الرقاة، ولا الحديث عما أصابك في المنتديات، بل يكفي أن ترفع يديك إلى الله ليكف بلاء العين عنك، ويمكنك لذلك أن تستعيذ بكل أنواع الاستعاذة الواردة في النصوص المقدسة، وأن توقن بعدها بأن الله قد رد عنك كل أسباب البلاء من تلك الجهة التي كنت تتوهمها، ولم يبق إلا الجهة التي سُلمت لك مفاتيحها؛ فكنت أنت أميرها وحامي ثغرها.

أيها الرفيق العزيز.. هذه نصيحتي إليك، ولنفسي، حتى نواجه المشاكل وأنواع البلاء بما تتطلبه من حلول معقولة ومنطقية، وليس بالهرب منها إلى أهوائنا، والشياطين الذين يزينون لنا أعمالنا، ثم يرمون كل تلك الرسائل الربانية التي يرسلها الله إلينا لينبهنا من غفلتنا، ويعيدنا إلى سراطه المستقيم.

لا تكن شريكا للقتلة

أرسلت إلي ـ أيها الرفيق العزيز ـ تتعجب من بثي لتلك الأحاديث المحذرة من القتل، وذكرت لي أنك وجميع من سمعوا تلك الأحاديث قوم مسالمون، لم تتلطخ أيديكم بالدماء، وأنه كان الأجدر بي أن أحدثكم عن غير الدماء، أو عن غير الكبائر؛ فأنتم ـ بحمد الله، كما تذكر ـ قوم متدينون مسلمون، وأبعد الناس عن مثل تلك الجرائم.

وأنا ـ في تلك الموعظة التي وعظتكم ـ لم أكن أقصد أنكم محاربون، ولا أن أيديكم ملطخة بالدماء، لكني خشيت أن تكونوا من الذين يُكتبون من القتلة، مع أنهم لم يسفكوا في حياتهم قطرة دم واحدة، لكنهم قتلوا بقلوبهم وألسنتهم ملايين البشر.. والقاتل ليس من مارس القتل بيده فقط، وإنما من مارسه بلسانه وقلبه وأي لطيفة من لطائفه.

لقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك، فقد قال ﷺ: (إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها وكرهها - وفي رواية - فأنكرها - كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها) (1)

وفي حديث آخر قال ﷺ: (ستكون أمراء فتعرفون وتنكرون فمن عرف برئ، ومن أنكر سلم ولكن من رضي وتابع) (2)

وأصدقك القول ـ أيها الرفيق العزيز ـ أني لم أكن أنوي أن أحدثكم في تلك الموعظة التي شرفتموني بطلبها عن القتل والدماء، ولكني في الفترة التي جلست فيها إليكم سمعت أحاديث عجيبة جعلتني أخشى عليك وعليهم من أن

---

(1) رواه أبو داود (4345)، والطبراني (17/ 139) (14033)

(2) رواه مسلم (1854)

تُكتبوا عند الله من القتلة، وأنتم لا تشعرون.

لقد سمعت بعضكم يتحدث بإعجاب عن أمريكا، ونهضتها، وتطورها الاقتصادي، ونظامها الدقيق، ويتمنى لو أن إخوانه من العرب انتهجوا نهجها وساروا، سيرها؛ فلما قال ذلك قام له بعض القوم، وذكر له ما فعل أسلافهم بالهنود الحمر، وبالفيتناميين، وباليابانيين، وما فعله خلفهم من جرائم في حق العراق وأفغانستان والكثير من بلاد الله الواسعة.. لكن الرجل بدل أن يستنكر تلك الجرائم، راح يبررها، ويدافع عنها، ويستعمل في ذلك كل ما تعلمه من فنون التبرير، ويصور أن السنن الحضارية قد تستدعي بعض السلوكات التي لا تنسجم مع العواطف، لكن العقل يفرضها.

واستسلم أكثر الحضور لكلامه وتبريراته، ولم ينكروا عليه، ولم يتصوروا أنهم بذلك السكوت والرضا قد كُتبوا في قائمة قتلة الهنود الحمر والفيتناميين واليابانيين والعراقيين والأفغانيين.. وغيرهم من عشرات الملايين البشر.

وهكذا راح آخر يدافع عن فرنسا، ويصور للحضور أنها أم التنوير، وأنها قمة من قمم الحضارة، وأنه لا يمكن لدولة تريد أن تتقدم من أن تسير على خطاها، وتنتهج نهجها، وتشرب من شرابها حلوه ومره، خيره وشره.. وعندما ذكر له بعض الحضور جرائم الفرنسيين في أكثر الدول الإفريقية، راح يلتمس لها الأعذار، وراح الحضور يقبلون منه، ويسجلون أنفسهم طواعية ضمن قائمة المجرمين الذين قتلوا ملايين المستضعفين.

وهكذا سمعت ثالثا يبرر للإرهابيين كل سلوكاتهم، ويعتبرهم ثوارا، وأن على الدولة أن تستسلم لهم، وأن تعطيهم رقابها، ورقاب شعبها ليذبحوه بالطريقة التي يشاءون.

وسمعت رابعا يذكر مناقب يزيد، وأنه مغفور له، وأنه استطاع أن يوحد الدولة، ويقف في وجه المعارضين؛ فلما

قام بعضهم يذكر له جرائمه في حق أهـل الـبيت في كـربلاء، وجرائمه في حق الصحابة في الحـرة، وغيرهـا.. راح يبررهـا، ويـدافع عن يزيـد وجـرائم يزيـد، وسـكت القـوم، وراحـوا يسجلون أنفسهم جنودا متطوعين في ذلك الجيش المجرم.

وهكذا سمعت خامسا، يبرر ما يحصل من قتـل لأطفـال اليمن وشـيوخها ورجالهـا ونسـائها، ويـذكر أن ذلـك شـيء طبيعي، وأنه على الدولة أن تحفظ جوارها من كل ما يسـيء إليه.

وهكذا لم ينفضّ ذلك المجلس إلا بعد أن سجل الحضور أسماءهم في قوائم القتلة، لا قتلة أفراد معدودين، وإنما قتلة الملايين ومئات الملايين.

لذلك عندما طلبـوا مـني في آخـر المجلس أن أحـدثهم، رحت أحدثهم عن القتل، لأني لم أشم عند جلوسـي إليهم إلا روائح دمـاء المستضـعفين المظلـومين، الـذين لم يكفهم أن قُتلوا مـرة واحـدة، وبـدم بـارد من المجـرمين المسـتكبرين، حتى أضاف إليهم أولئك الذين تسميهم قوما مسـالمين قتلـة جديدة، وفي بيت من بيوت اللـه، وفي شـهر من أشـهر اللـه الحرام.

وما آلمني ـ أيها الرفيق العزيـز ــ هـو سـكوتك على مـا ذكروه؛ فلم تنبس ببنت شفة، وأنا أعلم سبب ذلـك؛ فـأنت لا تحب أن تسبح خلاف التيار، ولا تريد أن تغرد خـارج السـرب، ولا تريد لقومك أن يرموك بـالبلادة، أو التخلـف، أو الرجعيـة، ولذلك آثرت أن تسجل اسـمك في قـوائم القتلـة، واعتبرتهـا أفضل من قوائم الرجعيين والمتخلفين والظلاميين.

ولذلك كتبت إليك هـذه الوصـية، أنبهـك إلى أن محكمـة العدل الإلهية لن تستثني قاتلا يوم القيامة، سـواء ذلـك الـذي باشر القتل، أو ذلك الـذي زكى القاتـل، أو ذلـك الـذي رضـي عنه، أو ذلك الذي دعمه، أو ذلـك الـذي أحبـه ووالاه، أو ذلـك الذي انتصر له، ودعا إليه..

فكل هؤلاء مسجلون ضمن القتلة، وكـل هـؤلاء ستوضـع في موازينهم كل جثث القتلى، وكل دماء المظلومين، لتؤخـذ بأوزانها حسناتهم، وتُصب عليهم سيئاتهم.

لـــذلك لا تـــذكر لي أنـــك وقومـــك من المســـالمين.. فالمسالم هو ذلك الورع الخائف من الله، الذي يعتذر له كـل حين، ويسـأله التوبـة، ويسـأله أن يطهـر قلبـه من كـل حقـد وضغينة، وأن يجعله كهفا منيعا للمستضـعفين حـتى لـو كـانوا متخلفين، وأن يجعلــه ســدا شــديدا في وجــه المســتكبرين الطغاة حتى لو لبسوا لباس فرعون، وظهروا بزينة قارون.

هذه وصيتي إليـك، ولقومـك؛ فـإن شـئتم أن تتوبـوا إلى اللــه؛ فعليكم أن تعتـذروا أولا لكـل أولئـك الـذين قتلتمـوهم بألسـنتكم وقلـوبكم، وأن تـدفعوا لهم الديـة على قتلكم لهم، وديتكم هي أن تدافعوا عنهم، وأن تقفوا في وجــه قتلتهم؛ فلا يمكن لمن انتمى إلى عصــابة أن يخــرج منهــا إلا بعــد إعلان براءته منها، وحربه لها.

لا تدخل مطعم غيبة

لا أزال أذكر جيدا ـ أيها الرفيـق العزيـز ـ ذلـك المطعم الـذي أخبرتـني عنـه، والـذي تسـبب لـك طعامـه في تسـمم أصاب جهازك الهضمي، بل جميع أجهزتـك بضـرر كبـير، ظـل يلاحقك ألمه وتبعاته فترة طويلة، مع أنك لم تأكل فيه سـوى وجبة واحدة.

وأنـا لا أريـد أن أطلب منـك أن تعـود إلى ذلـك المطعم المشؤوم؛ فقد ذكرت لي أنـك أقسـمت على أنـك لن تـدخل أي مطعم في حياتك، ذلك أن الوسـاوس صـارت تنتابـك في كل ما يعـرض فيهـا من طعـام، وأنـا أوافقـك في ذلـك؛ فقـد حصـل لي بعض مـا حصـل لـك، وصـرت لا أسـافر إلا ومعي زادي الذي يغنيني عن تلك المطاعم المشؤومة وغيرها.

ولكني أريد أن أذكرك بأنك ربمـا لم تـبر بقسـمك؛ فقـد رأيتك البارحة في مطعم أكثر شـؤما من ذلـك المطعم الـذي أصابك بالتسـمم، لكن الفـرق بينهمـا أن الأول تـرك أعراضـه في جسدك؛ فلذلك رحت تسـارع في علاجـه، وإخـراج العلـة منـه، بينمـا المطعم الـذي رأيتـك فيـه البارحـة أصـاب قلبـك ونفسك وحقيقتك، ولم يترك أي أثـر في جسـدك، ولـذلك لم تنتبه إليه، لأننا لا ننتبه عادة للعـوارض النفسـية مثـل انتباهنـا للعوارض الجسدية.

لست أدري ـ أيها الرفيق العزيـز ـ هـل فهمت عـني مـا أقصـده أم لا.. ولـذلك سـأذكرك، فلعلـك تتـدارك مـا حصـل لروحـك، مثلمـا تـداركت مـا حصـل لجسـدك، ولعلـك تقسـم قسما جديدا على عدم الدخول لتلـك المطـاعم الـتي تصـيب أجهزتك الحقيقية بالسـمية، مثـل توبتـك عن المطـاعم الـتي تتسـبب في عطب الآلات الـتي تسـتخدمها، والكفن الـذي تلبسه.

لقد رأيتك البارحة تدخل ذلك النـادي الثقـافي المحـترم،

وكنت تعرف جيدا أصحابه، وأنواع الأحـاديث الـتي يشـتهونها، وكان في إمكانـك، وأنت تطـرح أسـئلتك عليهم أن تصـرفهم إلى علم ينتفعــون بــه، أو جهــل يزيلونــه، أو خدمــة عامــة يسارعون إليها، لكنـك ــ ولعلمـك بثقـل أمثـال تلـك الحـديث عليهم ـ رحت تتودد لهم، وتسألهم عن الشخص الـذي تعـرف موقفهم منه جيدا.

وكــانت فرصــة لهم، لأن يقومــوا بإحضــاره أمامــك، ثم التفنن في تشريحه، وطبخه على نيران أحقـادهم الهادئـة، ثم الشروع في أكله بعـد نضـجه؛ ثم وقفت وأنت تتفـرج عليهم، وكيف ينهشون لحمه الميت المحترق، وتتلذذ بذلك.

نعم لم أرك تحمل شوكة ولا سكينا لتشـاركهم في ذلـك الطعام المسموم، ولكنك كنت أنت الذي أحضره إليهم بــذلك السؤال الذي تعرف مسبقا جوابه.. ولذلك كان وبـال كـل مـا حصـل لـه مرتـدا إليـك؛ فـأنت صـاحب الإثم الأول؛ فكمـا أن الدال على الخير كفاعله، فكذلك الدال على الشر كفاعله.

والمصيبة الأعظم ــ أيهـا الرفيـق العزيـز ــ هي أنـك لم تنبس ببنت شـفة لتنهـاهم عن ذلـك الأكـل المسـموم، لأنـك تتصور أن الأكـل المسـموم لا يوضـع فقـط إلا في المطـاعم التي تغذي الجسد، مع أن أخطر أنواع السموم هي تلك الـتي تصـيب الـروح والعقـل والقلب؛ فتـنزل بالإنسـان من درجتـه الرفيعة المكرمة إلى درجة أدنى من درجات البهائم.

لا تحسبن أني ـ أيها الرفيق العزيز ــ أزعم لنفسـي علم الغيب، أو الاطلاع على اللــوح المحفــوظ، أو الشــق على الصـدور لمعرفـة مـا تكتـنزه من خـير وشـر، ولكـني ليقيـني العظيم بما ورد في النصوص المقدسـة الـتي توضـح حقـائق الوجود كما هي من غـير تزويـر ولا تبـديل ولا لـف ولا دوران، رأيت كل ذلك..

لقد سمعت ربي في القرآن الكريم يعتبر كل كلام جارح ومــؤذ في حــق الآخــرين نوعــا من أكــل لحــومهم الميتــة

المسمومة؛ فقد قال تعالى يعبر عن الحقيقة التي لا نراها بأبصارنا الفانية: {وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ } [الحجرات: 12]

وقد فسر رسول الله ﷺ الآية الكريمة؛ فأخبر عن المصير المؤلم الذي ينتظر الداخل إلى نادي المغتابين، فقال: (من أكل لحم أخيه في الدّنيا قرّب له يوم القيامة؛ فيقال له: كله ميتا كما أكلته حيّ؛ فيأكله ويكلح ويصيح))(1)

بل إن رسول الله ﷺ أخبر عن بعض رؤيته لحقيقة المغتابين التي تختفي وراء تلك المظاهر الكاذبة التي نراها منهم، وهم يشعرون في ظاهرهم بالسعادة والسرور والأنس، بينما باطنهم وحقيقتهم تصيح بالألم والشقاء والوحشة، ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (لمّا عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الّذين يأكلون لحوم النّاس، ويقعون في أعراضهم)(2)

وفي حديث آخر عن جابر قال: كنّا مع النّبيّ ﷺ؛ فارتفعت ريح منتنة، فقال رسول اللّه ﷺ: (أ تدرون ما هذه الرّيح؟ هذه ريح الّذين يغتابون المؤمنين)(3)

وفي حديث آخر أن النّبيّ ﷺ مر بقبرين؛ فقال: (إنّهما ليعذّبان، وما يعذّبان في كبير، أمّا أحدهما فيعذّب في البول،

(1) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (10/ 485) : سنده حسن.

(2) أحمد في المسند (3/ 224) ، وأبو داود (4878)

(3) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (3/ 515) واللفظ له، وقال: رواه أحمد وابن أبي الدنيا ورواة أحمد ثقات، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (10/ 484) : سنده صحيح..

وأمّا الآخر فيعذّب في الغيبة)[1]

وفي حديث آخر أنّ النّبيّ ﷺ قال: (من أكل برجل مسلم أكلة فإنّ الله يطعمه مثلها من جهنّم، ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإنّ الله يكسوه مثله من جهنّم، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإنّ الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة)[2]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنّم حتّى يأتي بنفاد ما قال فيه)[3]

وهكذا كان رسول الله ﷺ يستعمل كل وسائل التنفير من الغيبة، والتحذير منها، مثلما نستعمل نحن كل الوسائل من التحذير من التسميم ومخاطره؛ وقد كان يردد كل حين: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبّعوا عوراتهم، فإنّه من اتّبع عوراتهم يتّبع اللّه عورته، ومن يتّبع اللّه عورته يفضحه في بيته)[4]

فإذا ذكر له أحدهم بأنه لا يقول في غيبة أخيه إلا الحقيقة التي لا يزيد عليها حرفا واحدا، يقول له: (إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتّه))[5]

---

[1]() أحمد في المسند (5/ـ 35ـ 36) ، وابن ماجة (1/ـ 349) واللفظ له وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (1/ 485) : أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح..

[2]() أحمد في المسند (4/ـ 229) ، وأبو داود (4881) واللفظ له وصححه الألباني: صحيح سنن أبي داود (4084) ، والحاكم في المستدرك (4/ـ 127ـ 128) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي..

[3]() الترغيب والترهيب للمنذري (3/ 515) وقال: رواه الطبراني بإسناد جيد.

[4]() أبو داود 4 (4880)، وقال الحافظ العراقي في الإحياء (3/ـ 104) : سنده جيد.

وكـان ﷺ لا يكتفي بـذلك التنفـير، وإنمـا يعتـبر كـل من سـمع الغيبـة، وسـكت ــ مثلمـا فعلت أيهـا الرفيـق العزيـز ـ مشاركا في تلك المائدة المسمومة المشؤومة، ففي الحديث أن نفرا من أصحاب رسول الله ﷺ ذكروا عنـده رجلا فقـالوا: لا يأكل حتّى يطعم، ولا يرحل حتّى يرحل لـه، قـال النّـبيّ ﷺ: (اغتبتموه). فقالوا: يا رسول اللّه إنّمـا حـدّثنا بمـا فيـه، قـال: (حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه)(1)

وهكـذا عنـدما وصـفت لـه زوجـه عائشـة صـفيّة بكونهـا قصيرة، ومع أنها اكتفت بالإشـارة، ولم تتكلم بكلمـة واحـدة، لكن رسـول اللــه ﷺ لم يـراع خاطرهـا ــ مثلمـا راعيت أيهـا الرفيق العزيز خواطر أصحابك ـ وإنما راح يؤنبها، ويقول لها: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته)(2)

ولهذا كان في إمكانك أيها الرفيق العزيز أن تدخل لذلك المطعم، وتمـارس حرفـة الـذب عن أعـراض النـاس، بـدل انتهاكهـا، لتخـرج بـأجور عظيمـة لا يمكنـك أن تتخيـل مقـدار عظمتها؛ ففي الحديث عن رسول اللــه ﷺ قـال: (من ردّ عن عرض أخيه ردّ الله عن وجهه النّار يوم القيامة)(3)

وفي حــديث آخــر قــال ﷺ: (من ذبّ عن عــرض أخيــه بالغيبة كان حقّا على الله أن يعتقه من النّار)(4)

5() مسلم (2589)

1() قـال المنـذري في الـترغيب والـترهيب (3/ـ 506) : رواه الأصـبهاني بإسـناد حسن..

2() أبـو داود (4875) واللفـظ لـه، والترمـذي (2502ـ- 2503) وقـال: حـديث صحيح..

3() الترمذي (1931) واللفظ له وقال: هذا حديث حسن.

4() الترغيب والترهيب للمنذري (3/ 517) وقال: رواه أحمد بإسناد حسن، وابن أبي الدنيا والطبراني وغيره.

هذه نصيحتى إليك ـ أيها الرفيق العزيز ــ وأنت مخير بعدها بين أن تدخل تلك المطاعم لتنشر فيها قيم الخير والصلاح، وتذب فيها عن أعراض إخوانك، وبين أن تهجرها، وتقسم ألا تدخلها مثلما فعلت مع تلك المطاعم التي سممت جسدك؛ فسموم الروح أخطر وأكثر فتكا وإيلاما من سموم الجسد.

لا تأكل طعاما يضر بصحتك

لا أزال أذكر جيدا ـ أيها الرفيـق العزيـز ــ تحـذيراتك لي من الكثـير من الأغذيـة الحديثـة المصـنعة، والـتي لا تـراعي الصحة في صـناعتها، فلـذلك تهتم بـأذواق المسـتهلكين أكـثر من اهتمامهـا بصـحتهم؛ فتطعمهم ــ من حيث لا يشـعرون ـ سموما لذيذة لا يستفيد منها إلا خلايا ذوقهم.

لقد حفظت كل تلك التعليمات التي ذكـرت لي بشـأنها، وصرت قبل شـراء أي نـوع من الأغذيـة المصـنعة، أنظـر في تركيبتهـا، وأنـواع المـواد الحافظـة لهـا، أو المسـببة لنكهتهـا وذوقها ولونها، بل صرت أتـورع عن أكثرهـا، حـتى مـع خلـوه مما ذكرت خشية أن تكذب تلك الشركات فيمـا تـذكره عنهـا وعن مكوناتها وأوصافها.

وأنا أشكر لك جميل نصـحك لي، وحسـن رفقـك بصـحة جسدي وعافيته، وأريد ـ من باب الجزاء والشكر ـ أن أضـيف إلى ما ذكرت لي من أنواع الأطعمـة الضـارة بالصـحة أنواعـا أخرى لم يذكرها أبوقراط، ولا جـالينوس، ولا داود الأنطـاكي، ولا غيرهم من الأطباء في القديم والحديث، وإنما ذكرهــا رب الأطباء وخالقهم، وشرحها معلم الأطباء وقدوتهم، وهي أنفــع لك ولي من كل تلك النصائح التي أسديتها، وشـكرتك عليهـا، وعملت بما فيها.

وأولها كل طعام يحمل فـيروس الحـرام، حـتى لـو كـان ذرة واحـد، فهـو يفتـك بصـحة الـروح، ويـدمر سـلامة القلب، ويحدث خللا خطيرا بأجهزة الاتصـال مـع عـالم الغيب؛ فيمنـع إيصال الرسائل إليها، ويحول دون وصول منافعها.

وقد عبر معلم الأطباء وقدوتهم عن ضرر هذا النــوع من الطعام؛ فقال مخاطبا جميع البشرية: (يا أيّها النّاس! إنّ اللـه طيّب لا يقبل إلّا طيّبـا، وإنّ اللـه أمـر المؤمـنين بمـا أمـر بـه المرسلين، فقال: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُـوا مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَاعْمَلُـوا

صَـالِحًا إِنِّي بِمَـا تَعْمَلَـونَ عَلِيمٌ} [المؤمنـون: 51]، وقـال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُـوا مِنْ طَيِّبَـاتِ مَـا رَزَقْنَـاكُمْ} [البقـرة: 172]، ثمّ ذكر الرّجل يطيل السّـفر أشـعث أغـبر، يمـدّ يديـه إلى السّماء: يا ربّ! يا ربّ! ومطعمه حرام، ومشربه حـرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟)[1]

وقال مبينا دوره ذلك الفيروس الخطير في الحيلولة بين العمل الصالح وقبول الله له: (من اشترى ثوبا بعشرة دراهم في ثمنه درهم حرام، لم يقبل الله له صلاة ما كان عليه)[2]

وقال: (إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبـة، ووضـع رجلـه في الغرز، فنادى: لبيك اللهم لبيـك، نـاداه منـاد من السـماء: لبيـك وسـعديك وزادك حلال، وراحلتـك حلال، وحجـك مـبرور غير مأزور، وإذا خرج الرجل بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغرز، فنادى لبيك اللهم لبيك، ناداه مناد من السماء: لا لبيـك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجـك غـير مـبرور)[3]

وعندما سـأله بعض الصـحابة أن يـدعو اللـه بـأن يجعلـه مسـتجاب الـدعوة، قـال لـه: (أطب مطعمـك تكن مسـتجاب الدعوة، والـذي نفس محمـد بيـده، إن العبـد ليقـذف اللقمـة الحرام في جوفه ما يتقبل الله منه عمل أربعين يومـا، وأيمـا عبد نبت لحمه من سحت، فالنار أولى به)[4]

وذكر أن مضار الخمر الصـحية لا تتعلـق فقـط بالجسـد، وإنما تتعلق قبل ذلـك بـالروح، وبالصـلة مـع اللـه، فقـال(من

---

[1] مسلم: (1015)

[2] أحمد: 2/98.

[3] المعجم الأوسط (5228)

[4] المعجم الأوسط (6495) ..

شرب الخمر لم يقبل الله له صلاة أربعين يوما)[1]

ومن الفيروسات المتولدة من الفيروس السابق فيروس يسمى [أكل مال اليتامى]، وهو فيروس لا يشمل الاستيلاء على تلك الأطعمة المعدة لمن فقدوا آباءهم فقط، وإنما يشمل أيضا كل استعمال خاطئ لكل طعام معدّ لأي فرد من أفراد الرعية قلّوا أو كثروا، وقد قال الله تعالى مبينا خطورة هذا الطعام على صحة الروح، وصحة الأجساد التي تنتظرنا لنلبسها: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا } [النساء: 10]

ومنها فيروس يسمى [أكل المال بالباطل]، وقد ذكره الله تعالى، فقال: { وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: 188]

وذكره رسول الله ﷺ محذرا؛ فقال: (إنّ ممّا أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدّنيا وزينتها)؛ فقيل له: يا رسول الله، أو يأتي الخير بالشّرّ؟ فسكت النّبيّ ﷺ هنيهة، ثم قال: (إنّه لا يأتي الخير بالشّرّ، وإنّ ممّا ينبت الرّبيع يقتل أو يلمّ، إلّا آكلة الخضراء، أكلت حتّى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت عين الشّمس فثلطت ورتعت، وإنّ هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السّبيل، وإنّ من يأخذه بغير حقّه كالّذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة)[2]

ومنها فيروس يسمى [الكنز]، وهو فيروس يجعل صاحبه مقدسا للأموال؛ فيخزنهما أحوج ما يكون الخلق إليها، فيحرمهم، ويحرم نفسه منها، وقد ذكر الله تعالى خطره

---

[1] الطيالسي (1901) ، وعبد الرزاق (17058) و (17059) ، وأحمد 2/35، والترمذي (1862) ، وأبو يعلى (5686)

[2] البخاري- الفتح 3 (1465) ، 6 (2842)

على صحة الإنسان الأبدية؛ فقـال: { وَالَّذِينَ يَكْنِـزُونَ الـذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَـا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّـرْهُمْ بِعَـذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَـوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَـا فِي نَـارِ جَهَنَّمَ فَتُكْـوَى بِهَـا جِبَـاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَـزْتُمْ لِأَنْفُسِـكُمْ فَـذُوقُوا مَـا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ } [التوبة: 34، 35]

ومنها فيروس يسمى أكـل الربـا، وقـد ذكـر اللـه تعـالى خطره على صاحبه، حيث يوهمـه أن لـه القـوة على محاربـة الله؛ فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ وَذَرُوا مَـا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} [البقرة: 278، 279]

وذكر الجنون الذي يسـببه هـذه النـوع من الفيروسـات، فقـال: {الَّذِينَ يَـأْكُلُونَ الرِّبَـا لَا يَقُومُـونَ إِلَّا كَمَـا يَقُـومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة: 275]

ومنها فيروس يسمى [الرشوة]، وقـد ذكـر رسـول اللـه ﷺ خطره؛ فقال: (من ولي عشرة فحكم بينهم بما أحبّـوا، أو بما كرهوا جيء به مغلولة يـده، فـإن عـدل، ولم يـرتش، ولم يحف فكّ الله عنـه، وإن حكم بغـير مـا أنـزل اللـه وارتشـى، وحابى فيه شدّت يساره إلى يمينه ثمّ رمي به في جهنّم، فلم يبلغ قعرها خمسمائة عام)[1]

وقال محذرا بعض عماله بعد أن رآه قد تناول منها شـيئا يسيرا: (ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهـذا أهـدي لي! أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أمّه حتّى ينظـر أيهـدى إليـه أم لا؟ والّذي نفس محمّد بيده، لا ينال أحـد منكم منهـا شـيئا إلّا جاء به يوم القيامـة يحملـه على عنقـه، بعـير لـه رغـاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر)، ثمّ رفع يديه الشريفتين، وقـال: (اللهمّ هل بلّغت؟.. اللهمّ هل بلّغت؟)[2]

---

[1] () الحاكم (4/ 103)

[2] () البخاري- الفتح 13 (7197) ، مسلم (1832) واللفظ له.

وغيرها من الفيروسات الخطـيرة الـتي نحتـاج إلى تعلم علمها، والتعـرف على المـواد المسـببة لهـا، والمركبـة منهـا، حتى نحفظ صحة أرواحنا وقلوبنا، ونحفظ معها صحة علاقتنـا بربنا، ونحفظ بعدها صحة البنيان الذي كلفت الملائكـة ببنائـه لنا في دار القرار.

لا تدع على إخوانك

أيها الرفيـق العزيـز.. لم أشـفق عليـك في حيـاتي مثـل شفقتي البارحة عليك عندما رأيتك في مجلسك الذي تعـودتَ أن تجلس فيه، والنـاس جـاثون أمامـك، والـدموع تنهمـر من عينيك بشدة، وأنت تضطرب اضطراب الحية خشـوعا وتبتلا.. والجالسون بين يديك يؤمّنون بصوت مرتفع، ويبكون لبكائك..

وأنـا أيضـا كنت معكم أبكي، ولكن لا لبكائـك، ولا لبكـاء المحيطين بك، والمؤمّـنين على دعائـك، وإنمـا عليـك وعليهم شفقة وحزنا، فقد رأيتني وأنا خلفك، وأمام ذلك الجمع الــذي جثا بين يديك مثل أبي لهب وأبي جهل وأميـة بن خلـف، وهم يجثون وراء اللات والعـزى بـاكين خاشـعين يطلبـون منهـا أن تقضي على محمـد ﷺ وصـحبه الكـرام، وتجتث جـذورهم في أول دعوتهم.

أو مثل أولئك اليهـود الـذي رحـل إليهم رسـول اللـه ﷺ، وبــدل أن يســتقبلوه، وينصــروه، ويبشــروا بتلــك النصــوص المقدسة الـتي وردت في حقـه، راحـوا يرفعـون أيـديهم إلى اللـه بمثـل خشـوعك، وخشـوع من حولـك، يطلبـون منـه أن يقضي على محمد ﷺ وأولئك الأبطال الذين ضـحوا بأنفسـهم في سبيل نصرة الإسلام، ومواجهـة الأعـداء الـذين يتربصـون به.

ولم تكن أنت ومن حولــك تختلــف عنهم كثــيرا، لأنــك مارســت نفس الجريمــة الـتي مارسـوها، ولم يكن من فـرق بينك وبينهم إلا أنهم دعوا اللات والعزى، أو غيرهما من الآلهة المزيفة، وأنت كنت تدعو الله السميع المجيب.

أمــا دافــع الــدعاء، فقــد كــان واحــدا؛ فهم حقــدوا على رســول اللــه ﷺ ومن معــه من المؤمــنين، وأنت أيضــا، ومن معـك، مارسـتم حقـدكم على إخــوانكم من المؤمــنين أو من البشــر.. حيث لم تطلبــوا من اللــه تعــالى أن يهــديهم ســواء

السبيل، ولا أن يريهم الحق حقا ويرزقهم اتباعه، والباطل باطلا، ويرزقهم اجتنابه، وإنما رحتم تدعون عليهم بأن يجمد الدماء في عروقهم، ويزلزل الأرض من تحتهم، ويدخلهم جهنم وبئس المصير.

وكنتم تتلذذون، وأنتم تدعون بمثل هذه الدعوات، لأنها المتنفس الذي تتنفس به نفوسكم المملوءة بالأحقاد.. على الرغم من أنكم تقرؤون أن رسول الله ﷺ، وبعد أن قوبل بما قوبل به من معارضة أهل الطائف والمشركين في مكة المكرمة، لم يدع بتجميد دماء مخالفيه، وإنما راح يتضرع إلى الله بأن يهديهم سواء السبيل، بل يعتذر لهم؛ فيقول: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)[1]

بل إنه ﷺ قال ذلك يوم أحد، عندما شُج وجهه وقيل له: ألا تدعو عليهم؟ قال: (اللهمَّ أهد قومي فإنهم لا يعلمون)، ونزل بعدها قوله تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص: 56][2]

وقد قال ذلك في حق المشركين، بل كان يقول مثله وأكثر منه في دعواته للمنافقين، لا بأن يهديهم الله فقط، وإنما بأن يغفر لهم ويرحمهم.. حتى نهي عن ذلك، قال تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 80]

وهكذا قال إبراهيم عليه السلام لذلك الذي أراد رجمه، ونفيه، فقد قال له ـ كما يذكر القرآن الكريم ـ: {سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} [مريم: 47ـ 48]، وكان حريصا عليه وعلى أعدائه،

---

[1] حلية الأبرار: 305..

[2] الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ 3: 250.

حـتى وصـفه اللـه تعـالى بقولـه: {إِنَّ إِبْـرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: 114]

وهكذا قال يعقـوب عليـه السـلام لأبنائـه الـذين عـاقبوه سـنين طـوالا بإبعـاد ابنـه الحـبيب عنـه، فقـد قـال: {سَـوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يوسف: 98]

بل هكذا قال يوسف عليه السـلام لإخوانـه الـذين رمـوه في البئر، وأرادوا قتلـه، وجعلـوه يتعـرض للعبوديـة والسـجن سـنين طويلـة، ومـع ذلـك، وبمجـرد أن اعـترفوا بجـرائمهم، وقـــالوا: {تَاللَّهِ لَقَـــدْ آثَـــرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَـــا وَإِنْ كُنَّا لَخَـــاطِئِينَ} [يوسـف: 91]، رد عليهم بكـل هـدوء وأدب ولطـف ورحمـة: { لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الـرَّاحِمِينَ} [يوسف: 92]

وهكذا كان الأنبياء والأولياء والأصفياء.. أصحاب النفوس الطــاهرة، الــذين لا تعــرف قلــوبهم الأحقــاد، ولا ألســنتهم البذاءة..

أما أنت ـ أيها الرفيـق العزيـز ـ ومن معـك، فلم تكونـوا في ذلـــك الحين في معبـــد اللـــه، وإنمـــا كنتم في معبـــد الشيطان.. وتلك الدموع الـتي جـرت على خـدودكم، لم تكن صــافية كــدموع الخاشــعين، وإنمــا كــانت دموعــا ملطخــة بقاذورات النفس الأمارة، وهي لذلك أشـبه بميـاه المصـارف الصحية منها بدموع المتقين.

لذلك عليكم أن تغسلوا مآقيكم وخدودكم ووجوهكم من تلك النجاسات التي لطختها.. ولا تكتفوا بذلك، بل اذهبـوا إلى منبع تلك العيون فطهـروه، حـتى لا تتلطخ أرواحكم وقلـوبكم وحقائقكم.

ولا تغرنكم تلك المظاهر التي تظهـرون بهـا، فقـد أخـبر رسول الله ﷺ أن أشد الناس قسوة وأبعدهم عن الله أولئـك الذين وصفهم؛ فقال: (سيخرج قـوم في آخـر الزمـان حـدثاء الأســنان، ســفهاء الأحلام، يقولــون من قــول خــير البريــة،

يقـرؤون القـرآن، لا يجـاوز إيمـانهم حنـاجرهم، يمرقـون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)[1]

وهكذا كنتم في ذلـك الحين.. فتوبـوا إلى اللـه من ذلـك الخشوع الكاذب، ومن تلـك الـدموع النجسـة؛ فاللـه لا ينظـر إلى حركات أجسامكم، ولا إلى ذلك الصياح، أو تلك الحركات التمثيلية، ولا إلى الدموع، ولا إلى الخشـوع، وإنمـا ينظـر إلى الطهارة والصفاء وسلامة القلب.. فإن كنتم كذلك، فأبشـروا، ولو كانت عيونكم جامدة ما دامت نفوسكم طاهرة.

---

(1) رواه البخاري 9 / 86.

لا تتعصب لطائفتك

أيها الرفيق العزيز.. رأيتك البارحة مع بعض إخوانـك من المخالفين لك تجادلهم وتماريهم بعصبية شـديدة، وكأنـك في سـاحة حـرب، لا مجلس علم.. وكـأنهم أعـداؤك الأبعـدون، لا إخوانـك المؤمنـون، مـع أنـك تعلم أنهم يقـرون باللـه ربـا، وبمحمد ﷺ نبيا، وأنهم يقرؤون نفس الكتـاب المقـدس الـذي تقرؤه، ويصلون لنفس الرب الذي تعبده.

ولست أدري ما كان الداعي لكل تلك الضوضاء والجلبة، ولكل ذلـك التخـوين والتجـريم؛ فقـد رأيتـك تنظـر إليهم كمـا تنظر إلى الشياطين والمردة والمجرمين.

وعندما عدت إلى بيتي، واستعدت ذلك الموقف، ورحت أحلله، لم أجدك تناضل عن دينك، ولا عن ربك، ولا عن نبيـك، ولا عن كتابك المقدس، وإنما كنت تناضـل عن نفسـك.. فقـد كنت في كل ذلك الوقت لا تـدعو إلى اللـه، وإنمـا تـدعو إلى نفسك وأنانيتك وأهوائك.

لقـد تـذكرت مواقفـك السـابقة حينمـا كنت في طائفـة أخرى غير الطائفة التي تنتمي إليها اليـوم، وكنت أراك بنفس الهيئــة، وبنفس الجلبــة، وبنفس الممــاراة.. تخــوّن وتجــرّم المخالفين، وتتصور أنك على الحق المجرد، وتقسم عليه، ولا تكتفي بذلك، بل توزع دركات جهنم على المخالفين لك، كمـا توزع درجات الجنة على الموافقين، وبحسب درجات وفـاقهم وموافقتهم.

وقد جعلني كل ذلك أشعر أنـك في كـل تلـك الحـوارات قـديمها وحـديثها كنت تشـعر أنـك أنت المركـز، وأن أفكـارك وطروحاتـك ومواقفـك هي الحقيقـة المجـردة الـتي لا يُحكم على من خالفهـا إلا بالضـلالة.. وبـذلك لم تكن تـدعو للـه، وللحقيقة.. وإنما كنت تدعو إلى نفسك وأنانيتك.

هذا مـا أوصـلني إليـه التأمـل.. وإن شـئت أن تعـود إلى

خزان ذاكرتك، فستجد فيه مواقف لك تكفّر فيها نفسك، وتضللها، وتحكم عليها بكل ما تحكم به الآن على غيرك.

نعم أنت تذكّرني كل حين أنك قمت بالكثير من المراجعات، وأنك غيرت الكثير من المواقف والآراء.. وهذا شيء جميل؛ فالمؤمن هو الذي يدور مع الحق حيث دار، ولا يتبع الهوى أن يضله عن سبيل الله.. ولكن المؤمن أيضا هو الذي يحترم المرتبة التي وصل إليها غيره؛ فلا يطالبهم بالمراجعات قبل أن يحين حينها.. هو فقط يشرح لهم وجهة نظره، ويبرهن لهم عليها، ثم يتركهم ليتأملوا، فالمطلوب أن يصلوا إلى الحق بمحض رغبتهم، لا بذلك التهديد الذي تهددهم به، والجلبة التي تحدثها أمامهم.

ثم إنك ـ أيها الرفيق العزيز ـ تعلم أن أكثر الحق الذي تتصور أنك وصلت إليه من دون الناس حق مشتبه، وقع الخلاف فيه؛ وتعلم أن مخالفيك ممن لا يزال الاشتباه مؤثرا فيهم، ومانعا لهم من اتباعه؛ فلم تطالبهم باتباع المتشابه المختلف فيه، وترك المحكم المتفق عليه، مع أن الله تعالى لم يطالبهم بذلك، بل اكتفى منهم بإدراك المحكم والإيمان به، وترك المتشابه للراسخين في العلم الذين آتاهم الله طهارة القلب، ونقاء السر، ورجاحة العقل، ما يجعلهم يهتدون إلى الحقائق، ويتأدبون معها.

ألم تسمع ـ أيها الرفيق العزيز ـ إلى ربك، وهو يحدثك عن المحكم والمتشابه، ويبين أن أكثر الناس لا يطيقون فهم المتشابه، ولهذا يكفيهم الإذعان للمحكم، والتسليم بعلم المتشابه لله تعالى؛ فقد قال: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [آل عمران: 7]

وقد سمعت بعض مخالفيك، وهو يذكر لك ذلك.. لكنك

كنت تـأبى عليهم، وتخـبرهم بضـلالهم، وأن مـا توضـحت لـك أدلته ليس متشابها، وإنما هـو من المحكم القطعي، مـع أنـك تعلم أن أكثر الأمة على خلاف قولك.

لا أريد أن أذكر لك هنا ما الذي قلتـه لهم، ولا مـا قـالوه لك.. ولكني أريـد فقـط أن أذكـرك بـأن التعصـب داء مقيت، وهو من الكبر الخفي الذي ينتصر فيه الإنسـان لنفسـه، وهـو يتصور أنه ينتصر للحق؛ فـالحق أجمـل وأعظم من أن ننتصـر له بالباطل، وطريق الحق هو طريق السلام والهدوء والأدب.

ألم تسمع ـ أيها الرفيق العزيز ـ إلى ربك، وهو يعلم نبيه ﷺ كيف يخاطب المخالفين له من المشركين وعبدة الأصنام، ويقول لهم بكـل هـدوء وأدب وسـلام: { قُـلْ لَا تُسْـأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُـونَ (25) قُـلْ يَجْمَـعُ بَيْنَنَـا رَبُّنَـا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَـا بِـالْحَقِّ وَهُـوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) قُـلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [سبأ: 25 - 27]

ألم تسمع إليه، وهو يعلمنـا كيـف خـاطب إبـراهيم عليـه السلام قريبه المشرك، وبذلك الحوار الهادي الممتلئ بالأدب والسلام، فقد قال تعالى يصـف ذلـك المشـهد: { وَاذْكُـرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِـدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَـالَ لِأَبِيـهِ يَـاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَــاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِـكَ فَـاتَّبِعْنِي أَهْـدِكَ صِـرَاطًا سَوِيًّا (43) يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَـافُ أَنْ يَمَسَّـكَ عَـذَابٌ مِنَ الـرَّحْمَنِ فَتَكُـــونَ لِلشَّـــيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَـــالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْـكَ سَأَسْـتَغْفِرُ لَـكَ رَبِّي إِنَّهُ كَـانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَـزِلُكُمْ وَمَا تَـدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُـو رَبِّي عَسَـى أَلَّا أَكُـونَ بِـدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا } [مريم: 41 - 48]

هكذا ـ أيها الرفيق العزيز ــ علمنـا ربنـا كيـف نـدعو إلى الحقائق التي نؤمن بها، ومع غير المسـلمين، ممن يخالفوننـا

في الأصول والفروع، فكيف بمن يتفقون معنا فيهما جميعا، بل يتفقون معنا في أكثر قضايا الدين ومسائله.

لا أريد من حديثي هذا ـ أيها الرفيق العزيز ـ أن أدعوك إلى التوبة، ولا إلى الاعتذار من أولئك الذين ملأتهم حقدا؛ فذلك شأنك، ولكني أريد منك أن تتخلص من أنانيتك التي دفعتك إلى ذلك؛ وتتجرد للحق وحده، لتستحق أن تهتدي إليه، وتستحق بعد ذلك أن تكون اللسان الذي يعبر عنه، فالحق عزيز، والكل يدعيه، حتى أولئك الذين كانوا يعبدون الأصنام، تركوا أنبياءهم، فرحا بما عندهم من الباطل، قال تعالى: { فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [غافر: 83]

لا تكن فاحشا ولا متفحشا

أيها الرفيـق العزيـز.. سـمعتك البارحـة، وأنت على تلـك القنـاة الفضـائية المشـاغبة، يشـاهدك ملايين النـاس، وأنت تــوزع الســباب والشــتائم، وكــل ألــوان البــذاءة والفحش، مخلوطة بكلام الله تعالى وكلام رسـوله ﷺ.. فأسـأت إليهمـا أعظم إساءة.

نعم أنت انتصرت فيها لما تتصوره من حقيقــة، وواجهت خصومك بكل قوة، وأفلحت ربما في الكثير من ذلك.. ولكنك لم تر كيف أسـأت للحقيقـة، وكيـف ظلمتهـا، وظلمت أهلهـا، عندما استخدمت في نصرتك لها كـل تلـك الألفـاظ السـوقية البذيئــة الــتي تتــنزه عنهــا الحقــائق، ويتــنزه عنهــا أهلهــا، والمدافعون عنها.

لقـد كنت تقـول لي كـل حين أنصـحك فيـه بمثـل هـذه النصيحة أنك تقتدي فيها بأعلام كبار، وأنك لم تفعل سوى أن أعدت إحياءهم في كل مناسبة يتاح لك ذلك.

لقد رويت لي بسندك الطويل عن الإمام أحمـد أنــه في ورعـه وتقـواه كـان يقـول: (إذا رأيت الرجـل يغمـز حمـاد بن سلمة فاتهمه على الإسلام؛ فإنه كان شديداً على المبتدعة)

ورويت لي أن الإمـام الشـافعي ذكـر عنـه الـبيهقي في مناقبه (أنه كان شديدًا على أهل الإلحاد وأهل البـدع مجـاهراً ببغضهم وهجرهم)

وهكــذا رحت تســوق لي مــا قالــه الأئمــة الحفــاظ في وصــفهم لمخــالفيهم، أو لمن يتهمــونهم في دينهم وعلمهم؛ فرويت لي عن الحافظ معمر بن عبدالواحـد أنـه قـال تعبـيرا عن تجريحه لإبراهيم بن الفضـل الأصـبهاني الحافـظ: (رأيتـه في السوق، وقد روى مناكير بأسـانيد الصـحاح، وكنت أتأملـه تأملا مفرطا.. أظن أن الشيطان قد تبَدَّى على صورته)

ورويت لي أن جرير بن يزيد بن هارون قـال في تجـريح جعفر بن سليمان الضبعي: (رافضي مثل الحمار)

ورويت لي أن الجوزجاني قال في تجريح عبدالسلام بن صالح الهروي: (كان زائغا عن الحق، مائلا عن القصد سمعت من حدثني عن بعض الائمة أنه قال فيه: (هو اكذب من روث حمار الدجال، وكان قديما متلوثا في الأقذار)

ورويت لي أن سفيان الثوري قال في حق ثور ابن يزيـد الحمصي: (خذوا عن ثور واتقوا قرنيه)، وأن أبا عاصـم قـال: (اتقوا لا ينطحنكم بقرنيه)

وأن علي بن ثابت قال عن إبراهيم بن هدبة: (هو أكـذب من حماري هذا)

وأن الذهبي قال في تجريح موسى بن عبدالله الطويـل: (انظر الى هذا الحيوان المتهم).. وأنه قال في تجـريح ضـرار بن سهل الضراري: (ولا يدرى من ذا الحيوان).. وأنه قال في تجريح القاسم بن داوود البغدادي: (من حيوانات البر)

وأن أبا أحمد الزبيري قال في عمران بن مسـلم: (كـان رافضيا كأنه جرو كلب)

وأن يحـيى بن سـعيد القطـان ذكـر عنـده الشـاذكوني، فقال: (ذاك الخائب)

وأن يحـيى بن معين قـال في سـويد بن عبـدالعزيز: (لا يجوز في الضحايا).. وأنه قال في زكريا بن يحـيى: (يسـتأهل أن يحفر له بئر فيلقى فيه)

وأن محمد بن إسـماعيل الترمـذي قـال في إبـراهيم بن يحيك (لم أر أعمى قلبا منه)

وهكذا رحت تذكر لي مقالات المعاصـرين الـتي اسـتنوا فيهـا بسـنة أسـلافهم؛ فـذكرت لي أن الشـيخ ناصـر الـدين الألباني قال عن الشيخ محمّد سعيد رمضان البوطي والشـيخ

محمّد عوامة: (وظنّي أنّ هذا المقلّد وذاك، على ما بينهما من الخلاف في الأصول والفروع إلاّ في التقليد الأعمى.. فما حيلتنا مع أناس ندعوهم إلى اتّباع الكتاب والسنّة لينجو بذلك من العصبيّة المذهبيّة والغباوة الحيوانيّة، فيأبون)[1]

وقال عن الشيخ عبد الفتاح أبو غدّه: (أشلّ الله يدك وقطع لسانك)[2]

وقال عن الشيخ الصابوني: (سرّاق، غير صادق، جاهل مضلّل، صاحب دعوى فارغة، سأكشف خزيه وعاره)

وقال عن المحدّث حبيب الرحمن الأعظمي: (وقد استعان الأنصاري بأحد أعداء السنّة وأهل الحديث ودعاة التوحيد والمشهور بذلك، ألا وهو الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي)

وقال عن الشيخ محمّد علي الصابوني والشيخ نسيب الرفاعي: (وهما من أجهل مَن كتب في هذا المجال في ما علمت، وبخاصة الرفاعي منهما فإنّه أجرؤهما إقداماً على التصحيح بجهل بالغ)[3]

وهكذا رحت تروي لي الكثير من الروايات التي تبرر بها سلاطة لسانك، وميلك إلى الفحش والتفحش، لتصورك أنك لن تهزم خصومك والمخالفين لك إلا إذا أمطرت آذانهم بأمثال تلك العبارات الشديدة التي تجعلهم يتساقطون أمامك، وتتهاوى حججهم.

ولكنك نسيت أن تروي لي مع كل تلك الروايات التي

---

[1] () مقدّمة الآيات البينات، نقلا عن قاموس شتائم الألباني، للشيخ العالم حسن بن علي السقّاف..

[2] () كشف النقاب: 52.

[3] () السلسلة الضعيفة 4: 51..

أميلتها على أذني رغما عنهما ما ورد في الحديث الصحيح المتفق عليه عن أنس، أنه قال: (خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكا قط، ولا عطرا كان أطيب من عرق النبي ﷺ)(1)

ونسيت أن تذكر لي وصف عائشة أم المؤمنين لرسول الله ﷺ وحسن خلقه مع موافقيه ومخالفيه؛ فقالت: (لم يكن ﷺ فاحشا، ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح)(2)

ونسيت أن تذكر لي قولها: أتى النبي ﷺ أناس من اليهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، قال: (وعليكم)، قالت عائشة: قلت بل عليكم السام والذام، فقال رسول الله ﷺ: (يا عائشة، لا تكوني فاحشة) فقالت: ما سمعت ما قالوا؟ فقال: (أو ليس قد رددت عليهم الذي قالوا؟ قلت وعليكم)(3)

ونسيت أن تذكر لي قوله ﷺ: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء)(4)، وقوله: (ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء)(5)، وقوله: (ما كان الفحش في

---

(1) البخاري- الفتح 12 (6038) . ومسلم (2330)، واللفظ للترمذي (2015)

(2) الترمذي (2016) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(3) البخاري- الفتح 10 (6030) ، مسلم (2165) واللفظ له.

(4) الترمذي (1977) ، أحمد (1/ 405) وقال شاكر: اسناده صحيح (5/ 322) ، والحاكم (1/ 12)

شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه)(1)

نسيت أن تذكر لي كل هـذا، ولا ألومـك على ذلـك، لأني عنـدما أسـمع ثنـاءك على أولئـك المشـايخ وتعظيمـك لهم، وتشددك في الرد على مخالفيهم، أشـعر أنهم لم يـتركوا في قلبك محلا لرسول الله ﷺ، وأنهم لذلك صاروا هم أسـوتك، لا رسول الله ﷺ الذي قال عنه ربه سبحانه وتعالى: { لَقَدْ كَـانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُـو اللَّهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21]

بل إني أراك لا تقدم أولئك المشايخ والعلماء فقط على رسول الله ﷺ، وإنما أراك تقدم أولئـك الظلمـة والمسـتبدين الذين رغبوا عن سنة رسول الله ﷺ إلى سنن كسرى وقيصر وشـارون وهتلـر، فقـد سـمعتك مـرات كثـيرة تشـيد برسـالة هارون لملك الروم، والتي يقول لـه فيهـا: (من هـارون أمـير المؤمـنين إلى نقفـور كلب الـروم، قـد قـرأت كتابـك يـا ابن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام)

ولم أسمعك، ولو مرة واحدة تشيد برسالة رسـول اللـه ﷺ إلى ملك الروم، والتي يقـول لـه فيهـا بكـل أدب ولطـف: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقـل عظيم الـروم، سـلام على من اتبـع الهـدى، أمـا بعـد، فـإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللـه أجـرك مرتين، وإن توليت فـإن عليـك إثم الأريسـيين، و﴿قُـلْ يَاأَهْـلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُـدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًـا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْـلِمُونَ ﴾ [آل عمـران: 64]([4])

5() الترمذي (2002) وقال: حسن صحيح..

1() الترمذي (1974) وقال: حديث حسن، أحمد (3/ 165) ، ابن ماجة (4185) واللفظ لأحمد وابن ماجة..

(1)

ألم تلحظ في هذه الرسالة كيف خاطب رسول اللــه ﷺ ملك الروم، بذلك الأدب واللطف، وقـد سـماه عظيم الـروم، ولم يسمه كلبهم.. وكيف ملأ رسـالته بتلـك الألفـاظ الجميلـة الممتلئة بعطر السلام (سلام، الإسلام، أسلم، تسلم، وأسلم، مسلمون) التي ملئت بها الرسالة؟

تلك هي سنة رسـل اللـه ﷺ، وورثتـه الصـادقين، الـذين رغبت عنهم ــ أيهـا الرفيـق العزيـز ــ ورغبت قبـل ذلـك عن القرآن الكريم الذي علم الله تعالى فيه نبييه موسى وهارون عليهما السلام كيف يخاطبان فرعون الطاغية المسـتبد الـذي ادعى الألوهيـة، فقـال: { اذْهَبَـا إِلَى فِرْعَـوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه: 43، 44]

---

(1) رواه البخاري 1 / 30 - 42 ، ومسلم رقم (1773)

لا تبالغ في الدفاع عن نفسك

أيها الرفيق العزيز.. يحزنني أن أعاتبك على تضييعك لتلك الأوقات الثمينة، والمداد الكثير، في الحديث مع خصومك؛ لا عن الحقائق الناصعة، أو أدلتها الباهرة، وإنما عن نفسك، وتبرئتها من التهم التي ينسبونها إليك، والتي تعتقد سلامتك منها.

فما يضرك أن يفعلوا ذلك، ما دام الله يعلم براءتك، وما دامت الملائكة الموكلة بالكتابة لم تسجل عنك ما يرمونك به، وما دمت موقنا أن كل تلك التهم لن توضع في ميزان سيئاتك يوم القيامة، بل سيوضع بدلها صبرك الجميل، وردك الطيب على خصومك.

لذلك لا تبالغ في الدفاع عن نفسك، واكتف بأن تذكر لخصومك في جملة واحدة براءتك من تلك التهم، وأنهم يمكنوا أن يتأكدوا بما أتيح لهم من وسائل، ثم لا عليك بعدها أن يفعلوا أو لا يفعلوا.. اكتف فقط برمي الكرة في ملعبهم، ثم دعهم وشأنهم معها.

هكذا كان منهج الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقد أمر الله تعالى رسول الله ﷺ بأن يقول لخصومه الكثيرين مع كفرهم وعنادهم الشديد: { لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سبأ: 25]، ثم أمره بأن يذكر لهم أنه عند لقاء الله ستنكشف الحقائق، ويميز المجرم من البريء، قال تعالى: {قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ } [سبأ: 26]

ولذلك نرى الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يشكون إلى الله تلك الاتهامات التي اتهمهم بها قومهم، وإنما يشكون إليه إعراضهم عن الله؛ فذلك وحده ما يؤلمهم.

وقد ذكر الله تعالى عن نوح عليه السلام شكواه الطويلة مع الله، والتي لم يذكر فيها سوى الإعراض عن

الله، لا كل أصناف السخرية التي ووجه بها، قال تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (21) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (22) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } [نوح: 21 - 23]

وهذا هو منهج روثتهم الذين غابوا عن أنفسهم، وفنوا عن أهوائهم، وصار الحق قبلتهم، فلم يعد يهمهم ما يقول الناس فيهم، وإنما يهمهم أن يقبل الناس على الحق، ويقتنعوا به، لذلك لم يكونوا يضيعون دقيقة واحدة في الدفاع عن أنفسهم، وإنما كانوا يقضون كل أوقاتهم في الدفاع عن الحقائق، فمن عرف الحقائق، سيسهل عليه بعد ذلك أن يعود إلى وعيه، ويصحح ما وقع فيه من أخطاء، ويتراجع عما أشاعه من تهم.

وسبب ذلك كله طمأنينتهم بأن ما ينالهم من سخرية أو اتهامات ضريبة دعوتهم إلى الله، ولذلك يحتسبون أجرها عند الله، ولا يشعرون بأي ألم، وهم يواجهونها، بل إنهم يتلذذون بها، لاعتبارهم لها سهاما مصوبة عليهم أثناء جهادهم في سبيل الله.

وكيف ينفرون منها، أو يتألمون لها، وهم يشعرون أن الله بعظمته وجلاله يدافع عنهم، فقد قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: 38]

لست أدري ـ أيها الرفيق العزيز ــ مدى اقتناعك بما ذكرت لك؛ فقد سمعتك مرة تذكر ما قام به بعض العلماء من كتابة الكتب في الدفاع عن نفسه، والرد على خصومه، وجعلت ذلك هديا لك تسير عليه، مع أن الله تعالى لم يجعل لك الأسوة إلا في الأنبياء وورثتهم من الصادقين المخلصين الذين فنوا عن أنفسهم وأهوائهم.

وإن شئت أن تتخذ غيرهم، فاتخذ أئمة أهل بيت النبوة،

أولئك الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ، واعتبرهم سفينة النجاة التي يغرق من لم يركبها.. فقد كانوا جميعا مع الآلام التي صبت عليهم جبالا من الصبر والحلم والأخلاق العالية.

وقد روي عن مجتباهم الإمام الحسن ـ سيد شباب أهل الجنة وريحانه رسول الله ﷺ ـ أنه لقيه رجل من أهل الشام، فراح يسبه ويسب أباه سبا شديدا بذيئا.. لكن المجتبى نظر إليه، فرآه غريبا، فقال له ــ وكأنه لم يسمع ذلك السباب الشديد ـ: (أحسبك غريبا.. فمل بنا؛ فإن احتجت إلى منزل أنزلناك، وإلى مال آسيناك، أو إلى حاجة عاوناك!)(1)

هكذا أجابه الإمام المجتبى، الذي لم يدخل معه في خصومة، ولم يستعمل أي وسيلة للتشهير به أو إيذاءه مع أنه كان يملك القدرة على ذلك، بل نظر إليه من زاوية تكليفه الشرعي، وهو الاهتمام بالغريب وعابر السبيل.

ومثل ذلك ما روي عن الإمام السجاد الذي يذكر المؤرخون أن أمير المدينة الأموي هشام بن إسماعيل كان يؤذيه كثيراً؛ فلما عزل من منصبه، وأمر الوليد أن يوقف أمام الناس للقصاص، مر به الإمام السجاد، وألقى عليه التحية والسلام، وطلب من خاصته وأصحابه أن لا يتعرضوا له بسوء حتى ولو بكلمة جارحة، فلم يجد هشام إلا أن يقرأ قوله تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ } [الأنعام: 124] (2)

وروي أن رجلا شتمه، فقصده بعض مرافقيه، ليرد عنه، فقال لهم: (دعوه فإنّ ما خفي منّا أكثر ممّا قالوا)، ثمّ قال له: أ لك حاجة يا رجل؟ فخجل الرجل، فأعطاه الإمام السجاد ثوبه، وأمر له بألف درهم، فانصرف الرجل صارخاً،

---

(1) الكامل للمبردج1ص235.

(2) تاريخ الطبري ج8، ص61..

وهو يقول: (أشهد أنّك ابن رسول الله ﷺ)[1] [5].

وروي أنّ شخصاً آخر شتمه، فقال لـه: (يـا فـتى إنّ بين أيدينا عقبة كؤوداً؛ فإن جزت منهـا فلا أبـالي بمـا تقـول، وإن أتحيّر فيها فأنا شرّ ممّا تقول)[2]

وروي أن آخر سبّه، فسكت، فقال الرجـل: إيّـاك أعـني، فرد عليه الإمام السجاد: (وعنك أغضي)[3]

وروي أنـه مـر يومـا على قـوم يغتابونـه، فوقـف عليهم، فقـال: (إن كنتم صـادقين فغفـر اللــه لي، وإن كنتم كـاذبين فغفر الله لكم)[4]

وهو نفسه الذي كان يردد كل حين: (ما تجـرعت جرعـة أحب إلي من جرعة غيظ أعقبها صبراً، وما أحب أن لي بذلك حمر النعم)[5]

هذه بعض النماذج التي يمكنك ـ أيها الرفيق العزيز ـ أن تتأسى بها، أما أولئك الذين ذكرتهم، فأنت أعلم بهم مني، ولا يمكنـني أن أعرفـك بشـيء تعرفـه، فخـذا مـا صـفا، ودع الكدورة، فلن ينجيك عند ربك إلا الصـفاء، ولن تجـده إلا عنـد الطاهرين الذين غسلت أرواحهم في كوثر النبـوة، ونمت في بيت الرسالة، وغذيت بلبان الوحي.

1() مناقب آل أبي طالب: ج4 ص157.

2() المرجع السابق، ج4 ص157..

3() المرجع السابق، ج4 ص157..

4() بحار الأنوار ، (46/ 62)

5() المرجع السابق، (46/ 74)

75

أيها الرفيق العزيز.. رأيتك البارحة، وأنت تجتهد في إقناع أولئك الذين امتلأوا فرحا بميلاد نبيهم ﷺ، بأن فرحهم منكر، وأنهم يمارسون بفرحهم واحتفالهم بدعة من بدع الضلالة.. ولم تكتف بذلك، بل رحت تزعم لهم أن كل البدع في النار.. وعندما لم تر منهم آذانا صاغية رحت تدعو عليهم، بل تكبهم في جهنم جميعا، لأنهم رغبوا عنك، ولم يستمعوا لتحذيراتك.

وقبل فترة رأيتك تحدث آخرين اجتمعوا على قراءة القرآن الكريم، يقرؤونه جماعة، على حسب الطريقة التي ورثوها عمن آبائهم وأجدادهم، وكانوا منفعلين جدا في قراءتهم، وملتزمين بسببها بدينهم، لكنك رحت تقنعهم واحدا واحدا بأن ينقطعوا عنها، إلى أن انفض جمعهم، ولم يجتمعوا بسببك على قراءة، ولا على دعاء، ولا في صلاة، وإنما ابتلعتهم الدنيا والأهواء، بعد أن حرموا من منبع الهداية الذي قطعته عنهم، ولم تفكر في عاقبة قطعك له.

وهكذا رأيتك قبل فترة تذهب إلى تلك الزاوية التي يجتمع فيها من يسمون أنفسهم [الفقراء إلى الله] يذكرون ويسبحون، ويستعملون كل الوسائل التي يقطعون بها الحجب التي تحول بينهم وبين ربهم.. لكنك لم تتركهم، بل ظللت خلفهم إلى أن انشغلوا عن قطع الحجب التي كانوا منشغلين بها إلى وضع الحجب أمام الخلق وربهم.

ولم تكتف بذلك، بل كان الشيطان يستعملك في كل محل للهداية أو ذكر الله؛ لتثبطهم عن ذلك، وتمنعهم منه، بعد أن حفظت تلك الكلمات التي لا تعرف من الدين غيرها: هي بدعة ضلالة.. وصاحب الضلالة في النار..

فإذا سئلت عن مصدر علمك بكونها بدعة أو ضلالة، ذكرت أن القرن الأول والثاني والثالث لم يفعلوها.. ولست

أدري من أين لـك بعصـمة تلـك القـرون، وأنت تعلم البـدع الخطـيرة الـتي ارتكبوهـا، والـتي لم يقـع مثلهـا في سـائر القرون.

فهل تريد من خلفك أن يقتدي بسـلفك في رمي الكعبـة بـالمنجنيق، أو في حصـار أهـل المدينـة المنـورة، واسـتباحة أهلها وقتلهم وتشريدهم وهتك أعراضهم؟

أم تريد منهم أن يقتدوا بسلفك في محاربـة إمـام الأمـة ذلك الذي اعتبره رسول الله ﷺ سراطا مستقيما، ومنبعا من منابع الهداية، واعتبر حبه إيمانا، وبغضه نفاقا؟

أم تريد منهم أن يقتدوا بسلفك في ترك مجالسة العترة الطاهرة، والصـحابة السـابقين الصـادقين لينهلـوا علمهم من الطلقاء وأبناء الطلقاء، واليهود وتلاميذ اليهود؟

دعك من سـلفك وخلفـك، وعـد إلى ربـك، وتواضـع في عبوديتك له، ولا تكن حجابا بين غيرك، وبين خير يقـدم عليـه، أو يؤمن به، يفعل ذلك اجتهادا أم تقليدا؛ فـأنت مسـؤول عن نفسك، ولست مسؤولا عن غيرك، ولست ملزما بـأن تفـرض قناعاتك على غيرك؛ فلغيرك علماء ومجتهـدون لا يقلـون عن علمائك ومجتهديك.

إنك بتصرفاتك تلك ـ أيها الرفيق العزيز ـ تمارس ما كان يقوم به المشركون في عهد رسول اللـه ﷺ بكـل دقـة، فقـد وصفهم الله تعالى فقال: { وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـأَوْنَ عَنْـهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْـعُرُونَ} [الأنعـام: 26]، وقـال عن فريق منهم: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى } [العلق: 9، 10]

بل إن مشاهد القيامـة الـتي ذكرهـا القـرآن الكـريم عن رفاق السوء، تكاد تنطبق عليك، ذلك أن كل من حـذرتهم من تلـك الـتي سـميتها بـدعا، قطعت تلـك الحبـال الـتي كـانت تربطهم بربهم ونبيهم.. وقد قـال تعـالى يصـف الأصـدقاء من أمثالك: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُـولُ يَـالَيْتَنِي اتَّخَـذْتُ

مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29]

عد إلى نفسك أيها الرفيق العزيز، وتخل عن كبريائك، فكل ما تفعله ليس نابعا من علم نافع، وإنما هو نابع من الكبر الذي يدعوك إلى مخالفة غيرك، والتدخل في أبسط شؤونهم، وإلا فأخبرني عمن وافقك في تلك الأقوال التي انفردت بها وحدك مع تلك المجموعة من أمثالك، والذين صور لهم الشيطان أنهم الفرقة الناجية، وأن من عداهم مشركون ومبتدعون وضالون.

ألا تخف أنت ورفاقك أن تكونوا من الذين صور الله تعالى دهشتهم يوم القيامة عند معاينة جهنم وأهلها، فقال: {وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (62) أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ } [ص: 62، 63]، وقال في مشهد آخر: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (48) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ} [الأعراف: 48، 49]

تب إلى ربك ــ أيها الرفيق العزيز ــ واعلم أن أول عبوديتك لله، احترامك لخلق الله، وتقديرك لقناعاتهم؛ فلهم من العقول مثل عقلك، ولهم من الورع ما لا يقل عن ورعك؛ فدعهم وما اختاروا لأنفسهم، وإن شئت أن تسلك طريق الدعوة وهداية الخلق إلى الله، فهناك الملايين الذين لا يصلون ولا يزكون ولا يهتمون بأي شعيرة من شعائر الدين؛ فاذهب إليهم، وادعهم إلى ربهم، فذلك أجدى لك عند الله، وأنت حينها داعية هداية لا داعية ضلال.

لا تكن لسانا للظلمة

أيها الرفيق العزيز.. سمعتك البارحة، وأنت تخطب الناس على ذلك المنبر الشريف، وتستشهد في حديثك عن عزة الإسلام وعدله بأولئك الظلمة الذين مكن الله لهم في الأرض، ليملأوها عدلا وهداية ونورا، لكنهم ملأوها فسادا وظلما وجورا، وكانوا أعظم الحجب التي حالت بين البشرية، وبين التعرف على الإسلام الصحيح الخالص الذي لم تشبه الشوائب.

ألا تعلم ما قال نبيك ﷺ فيهم.. ألم يذكر أنهم من أصحاب الملك العضوض الذين لم يخلفوه في دينه خلافة صالحة، وإنما حولوه أفيونا للمسلمين، وللشعوب التي يحكمونها.

ألم تسمع قوله ﷺ: (الخلافة ثلاثون عاماً، ثم يكون الملك العضوض)[1]، وقد صدق التاريخ قوله ﷺ، حيث انتقل الحكم في الإسلام بعد الثلاثين إلى كسروية وقيصرية لا تختلف عما كانت عليه فارس والروم، وغيرها من الممالك؟

فلم لم تسم الأشياء بأسمائها؟.. ولم لم تقل للعالم والناس أجمعين: إن أولئك المستبدين الظلمة الذين ورثوا الحكم عن آبائهم وأجدادهم لا يمثلون الإسلام، فليس في الإسلام كسروية ولا قيصرية، وليس في الإسلام حكم وراثي، وليس في الإسلام استبداد بالسلطة، ولا انفراد بها.

وليس المال في الإسلام ملك لذلك الخليفة الذي تثني عليه، وتعتبر من الكرماء الأجواد، وهو يعطي من بيت مال المسلمين كل من مدحه بقصيدة، أو تزلف إليه بخبر، أو أضحكه بنكتة في نفس الوقت الذي يرهق فيه كواهل الرعية بالضرائب وأنواع الإتاوات، فهل هذا من الإسلام، وهل هذه

---

(1) سنن الترمذي: 4/ 436 ــ سنن أبي داوود: 5/ 36، مسند احمد ج 5 ص 221..

هي الرحمة والعدالة التي جاء الأنبياء عليهم السلام للدعوة إليها؟

إن كنت تكذب قولي؛ فاطرح الجلباب الذي ورثته عن آبائك وأجدادك وبيئتك، واقرأ الدين بعقلك قبل أن تقرأه بعقول غيرك، وابحث في كتب التاريخ التي تعتمدها، لترى الجرائم التي ارتكبها أولئك الذين أصبحت لسانهم الناطق الذي يمدحهم من غير أن ينال منهم أي جائزة.

لقد رأيتك ـ أيها الرفيق العزيز ـ وأنت تتحدث عنهم كل حين بذلك الثناء العريض مثل الذي يضع في كعبة قلبه الكثير من الأصنام، ولا يمكن أن يرى الكعبة بجمالها وصفائها وطهرها، من يملأ قلبه بالأصنام.

فخذ معولك، وحطمها كما كان رسول الله ﷺ يفعل، ويقول أثناء تحطيمه لها: {جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً} (الاسراء: 81) {جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ} (سبأ: 49)

بتلك العصا التي تحطم بها الأصنام، يمكنك أن تسير في الطريق الصحيح لتفهم كلمات ربك المقدسة، وتعرف نبيك الممتلئ بالطهر والعصمة وكل القيم النبيلة، وعند معرفتك لهما تعرف ورثته الحقيقيين، وأنهم ليسوا أولئك الحكام الظلمة المستبدين الذين أساءوا للإسلام، وملأوه بالتخلف والاستبداد والظلم.. فدين الله يستحيل أن يمثله ظالم أو مستبد.

وإن شئت ألا تفعل ذلك، فلك ذلك، ولكن ليس لك الحق في أن تذكر أولئك الظلمة على منبر رسول الله ﷺ، وفي بيوت الله التي أذن أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، لا اسم الفراعنة أو الشياطين.

يمكنك أن تذكرهم في أسواق عكاظ وذي المجاز، أو أن تشيد بهم في الحانات والملاعب، لكن أن تذكرهم في المساجد، وتزاحم بهم الأنبياء والأولياء، وتدعو الناس لأن

يجعلوهم قدوة لهم؛ فتلك هي الطامة الكبرى، فالناس لن يسمعوا لكلامك فقط، بل سيبحثون ويدرسون ليكتشفوا من هم أولئك الذين تشيد بهم، وتدعو إليهم.

لا أدري ما أقول لك ـ أيها الرفيق العزيز ـ فأنا أعلم ثقل كلامي على سمعك، وأعلم أنك لا تريد أن تخرج من دين قومك، لتدخل في دين الله، ولذلك تسارع إلى تلك الأصنام كل حين تلمعها وتطيبها، لتشعر أنك لا تزال مع قومك.. وإن سمعت شخصا يدعوك لتحطيمها رحت تخاطبه بما خاطبت به قريش رسول الله ﷺ، أو رحت تقول له ما قال قوم نوح عليه السلام مخاطبين نبيهم: { لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا } [نوح: 23]

وأنت كذلك ـ أيها الرفيق العزيز ــ والفرق بينك وبينهم أنهم اكتفوا بخمسة أصنام، لكنك لم تكتف بخمسة آلاف صنم، أو خمسمائة ألف صنم، أو أكثر من ذلك.. كلهم ملتفون حول كعبة قلبك يزاحمونها؛ فلا ترى الحقائق إلا بعد رؤيتك لهم، ولا يمكن أن ترى الحقائق صافية وأنت تشاهدها من خلال مرائيهم المملوءة بالقذارة.

لست يائسا منك ـ أيها الرفيق العزيز ـ مع كل ما تقابل به نصائحي من شدة وغلظة وعنف، لأني أعلم أنك لا تخاطبني بذلك العنف، وإنما تخاطب نفسك من خلالي؛ فأنت لم تقتنع بهم أصلا، ولكنك خشية على نفسك من قومك، فرحت تعبدهم مثلما يعبدونهم، ولو أنك تخلصت من قومك، وعلمت أن كل ما فوق التراب تراب، لهان عليك أن ترميهم جميعا في المحرقة، ليبقى قلبك خالصا لربك؛ فلا يمكن أن يعرف الله من ملأ قلبه بالأصنام.

لا تغرنك الدموع

أيها الرفيق العزيز.. لا تغرنك الـدموع؛ فحـتى التماسـيح يمكنها أن تبكي.. وحتى أولئـك الممثلين الممتلـئين بالقسـوة يمكنهم أن يملأوا مآقي مشـاهديهم دموعـا، وكيـف لا يبكـون وهم يعلمون أنهم سيقبضون أموالا كثيرة، وجاهـا عريضـا من وراء تلـك الـدموع الـتي سـكبوها، وضـحكوا بهـا علي وعليـك وعلى جميع المشاهدين.

وهكذا فعل أولئك الـذين تـدافع عنهم من الظلمـة، فأنـا كلما ذكرت لـك جـرائمهم في حـق الإنسـانية، والـدماء الـتي سـفكوها، والأعـراض الـتي انتهكوهـا، رحت تنهـاني بورعـك البارد عن نقدهم أو لـومهم أو تـوبيخهم أو الإنكـار عليهم، ثم تحكي لي قصصـا لا تختلـف عن تلـك المسلسـلات الـتي نشـاهدها، والـتي قـد نلتفت فيهـا للـدموع، ولا نلتفت لمـا وراءها.

فهل تكفي تلك الـدموع لغسـل خطايـاهم وجـرائمهم؟.. وهل جعل الله الـدموع وسـيلة لإبـراء الـذمم؟.. وبـذلك فـإن القاتل ليس محتاجا لأن يدفع دية القتيل، ولا لأن يقدم رقبتـه ليقتص منه، بل يكفيه أن يذكر القتيل، ثم يبكي، ويـردد بعض كلمات الثناء عليه، مثلما فعل معاوية الذي احتال على عقلك وعقول الملايين بتلك الدموع التي كان يسكبها أمام حاشـيته، ويسكب معها أضعاف أضعافها دماء.

لا زلت أذكر ثناءك عليه عندما قصصت علي بكاءه على الإمـام علي، واعتـبرت تلـك الـدموع صـكا ببراءتـه من كـل الحروب الـتي قـام بهـا في وجهـه.. لقـد ذكـرت لي مـا رواه المغيرة أنه قال: لمـا جـاء خـبر قتـل علي إلى معاويـة جعـل يبكي، فقالت له امرأته: أتبكيه وقد قاتلتَه؟ فقال: (ويحكِ إنك لا تدرين ما فقد الناس من الفضل والفقه والعلم)[1]

---

[1] البداية والنهاية (8 / 133)

وهكذا ذكرت لي أنه لما دخل ضرار بن ضمرة عليه، فقال له ـ معاوية ـ: صف لي عليا؟ فقال له: أ وتعفيني من ذلك؟ فقال: لا أعفيك. فقال: (كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا، ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطف الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب..)، وبعد أن وصفه بما وصفه به من القيم النبيلة والأخلاق العالية، والتي لم تلفت إليها جميعا، وإنما انبهرت بما ذكره الرواة من أن معاوية بعد أن سمع ذلك الوصف (وكفت دموعه على لحيته فنشفها بكمه، واختنق القوم بالبكاء)[1]

وقد حسبتَ أن ذلك البكاء شافعا له عند الله، وأنها مسحت كل تلك الحروب التي خاضها، وتلك التحريفات الكبرى التي أصاب بها الإسلام في قلبه بتحويل الحكم فيه إلى كسروية وقيصرية، وتحويل حقائقه إلى لعبة بين أيدي الملوك يقربون من شاءوا من العلماء، ويذبحون من شاءوا.

وهكذا ذكرت لي، وأنت متأثر تكاد تبكي دموع الحجاج بن يوسف، عندما حضرته الوفاة، وأنه قيل له حينها: ألا تتوب؟ فقال: (إن كنت مسيئاً فليست هذه ساعة التوبة، وإن كنت محسناً فليست ساعة الفزع)[2]، وأنه دعا حينها وقال: (اللهم اغفر لي فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل)[3]، وقد تصورت أن ذلك كاف لغسله من جميع الجرائم، ليبعث كيوم ولدته أمه.

---

[1] () لاستيعاب 3: 107، حلية الأولياء 1: 84..

[2] () محاضرات الأدباء (4/495)

[3] () تاريخ دمشق (4/82) . والبداية والنهاية (9/138)

وهكذا ذكرت لي، عندما حدثتك عن جـرائم عبـد الملـك بن مروان، وأنه لم يكتف بقتل آلاف الأبرياء، عبر ولاتـه مثـل الحجاج وغيره، بل راح إلى الكعبة يرميها بالمنجنيق، لكنك لم تلتفت لذلك، وكأن الكعبة ومعها تلـك الألـوف الـذين قتلـوا لا قيمة لهم عندك.

وعندما عاتبتك في ذلك ذكرت لي بتـأثر شـديد مـا رواه الأصـمعي عن أبيـه عن جـده قـال: خطب عبـد الملـك يومـا خطبة بليغة ثم قطعها وبكى بكاء شـديدا ثم قـال: يـا رب إن ذنـوبي عظيمـة، وإن قليـل عفـوك أعظم منهـا، اللهم فـامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي.. وأنه عندما بلغ الحسـن البصـري ذلك بكى وقال: لو كان كلام يكتب بالـذهب لكتب هـذا الكلام [1].

وهكذا ذكرت لي عندما حدثتك عن هـارون الـذي قسـم الدولـة الإسـلامية بين ولديـه، وكيـف تسـبب ذلـك في فتنـة عظمى، لا نزال نعيش آثارها.. لكنك لم تبال بكل ذلك القتـل والدماء، وإنما رحت تذكر لي دموعه التي أسرتك..

لقد قلت لي موبخا: دعك يا رجل.. فمن أنت ومن هـو.. ماذا قدمت.. وماذا قـدم.. ألم تسـمع قصـته مـع الفضـيل بن عياض، وكيف ذكر الرواة أنه (بكى بكـاء شـديدا حـتى غشـي عليه)[2] عندما سمعها.

وهكذا رحت تحكي لي حكايات الدموع الـتي ضُـحك بهـا عليك، وعلى جماهير الناس الـذين لا يلتفتـون للضـحية الـذي بكى جسده دماء، وإنما يلتفتون لدموع القاتل، الـتي سـرعان

---

(1) البداية والنهاية، (9/ 81)

(2) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (9/ 150)

ما يمسحها، ويعود إلى لهوه ولعبه، ويخطط بعدها لجرائم جديدة.

ولو أنك ــ أيها الرفيق العزيز ــ عدت إلى كلام ربك المقدس، وإلى الأوصاف التي ذكر بها المنافقين وكونهم يتصورون أنهم مع جرائمهم من الصالحين، لدلك ذلك على الموازين الشرعية التي تزن بها الأعمال والمواقف، لقد قال الله تعالى في وصفهم: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:11]، وهكذا هؤلاء الذين ملأوا الأرض فسادا، لكنهم بدموعهم يخدعونك ويخدعون الجماهير بالظهور بمظهر الصالحين.

وهكذا قال تعالى في الذين بنوا مسجد الضرار، وما أكثر مساجد الضرار التي بنيت في تاريخ وجغرافية المسلمين: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [التوبة:107]

وهكذا قال تعالى في حق تلك الخدع التي يخدعونك ويخدعون الجماهير بها: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة:9].

وهكذا نبهنا رسول الله ﷺ إلى أن العبرة ليست بتلك الحركات التمثيلية التي قد تؤدى في الصلاة وغيرها، وإنما العبرة بالسلوك الأخلاقي الذي يشمل الحياة جميعا؛ فقال: (يخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليست قراءتكم الى قراءتهم شيئا، ولا صلاتكم الى صلاتهم شيئا، ولا صيامكم الى صيامهم شيئا، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الاسلام كما يمرق السهم من الرمية)[1]، وقال: (يرث هذا القرآن قوم يشربونه

[1] رواه مسلم وابو داود وابو عوانة.

شرب اللبن، لا يجاوز تراقيهم)[2]

أظن أن هذه النصوص المقدسة كافية ـ أيها الرفيق العزيز ـ لتراجع نفسك، وتراجع مواقفك، حتى لا تُحشر مع الظلمة الذين تدافع عنهم كل حين، وتنسى أولئك المستضعفين المقهورين الذين لم يجدوا من الأدباء أو المؤرخين أو وعاظ السلاطين من يسجل دموعهم التي لا تُكفكف، والتي قد تختلط بدمائهم، والتي تمتلئ بغصص المظلومية والاحتقار التي تسبب فيها من ترفع من شأنهم، وتحاول أن تطهر صورتهم التي لا يمكن أن تطهرها مياه البحر جميعا، فكيف بتلك الدموع التي لا تختلف عن دموع التماسيح.

---

[2] رواه أبو نصر السجزي في الابانة والديلمي..

لا تبحث عن رضى الناس

أيها الرفيق العزيز.. رأيتك قبل فترة قريبـة تطـالع كتابـا عن كيفية كسب الأصـدقاء.. وهـو كتـاب جميـل، وفيـه أفكـار كثيرة طيبة، أنصحك وأنصح نفسي بالتزامها، فالمؤمن ــ كمـا قال ﷺ ـ (إلف مـألوف، ولا خـير فيمن لا يـألف ولا يؤلـف)[1] وقال: (إن أقربكم مني مجلسـاً أحاسـنكم أخلاقـاً الموطئـون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون)[2]

لكني رأيتك ـ في سلوكك وعلاقاتك ـ تأخذ الكتـاب بكـل ما فيـه، ولا يصـح أن تفعـل ذلـك، فالكتـاب من تـدوين بشـر يصيب ويخطئ، والعاقل هو الذي يميز بين الصواب والخطـأ، ويمد يده إلى الورود، ويتجنب الأشواك التي تحيـط بهـا، فقـد تكون أشواكا سامة.

وهذا ما دعاني إلى كتابة هذه الوصية إليك، وإلى نفسي قبلك.. فقد رأيتك تسـتعمل أسـاليب في المـداراة والألفـة لا يجوّزهـا العقـل، ولا الشـرع، ولا حـتى أولئـك الـذين تريـد أن تصادقهم، ولو على حساب الحقيقة.

فالحقيقـة هي الصـديق الأول الـذي عليـك أن تصـاحبه، وتدمن على صحبته، وتجعلهـا رفيقـك الـدائم في كـل مجلس تجلس فيه، أو أي محل تـذهب إليـه.. ذلـك أنهـا تمثـل الحـق سـبحانه وتعـالى.. وهـو أول صـاحب، وأعظم صـاحب، وأدوم صاحب، وأرحم صاحب، وأجمل صاحب.. فكيف تحاول إرضاء غيره بإسخاطه؟.. وكيف تريد أن تكسب غيره، وتخسره؟

---

[1] () رواه أحمد (2/ 400) وفي (5/ 335)، الفردوس للديلمي (4/ 77) برقم (6549)

(8) الموطئون أكنافا: الأكناف جمع كنف وهو الجانب والمـراد الـذين يلين جـانبهم لإخوانهم..

[2] () رواه الترمذي (2018) ، وقال: حديث حسن، وصححه ابن حبان (1917)

ألا تعلم ـ أيها الرفيق العزيز ــ أني وإياك ممتحنان في هذه الحياة الدنيا بمثل هذه الأمور، ليرى الله وملائكته ورسله وكل شيء الجهة التي تميل إليها قلوبنا.. هل تميل إلى الحق، وتحرص عليه، وتضحي في سبيله بكل شيء، حتى بعلاقاتها القريبة والبعيدة، أم تميل إلى أهوائها، فتتقلب كما تتقلب الكرة في أرجل الصبية؟

وحينها يحصل لها ما حصل لذلك العاقل المشرك الذي قرأ القرآن الكريم، وأعجب إعجابا شديدا بجماله، بل رأى فيه الإعجاز عينه، وكان في إمكانه حينها لو آثر الحق، أن يصيح ملء صوته مناديا به.. لكنه عندما فكر وقدر، رأى أنه لو صاح بذلك، فسيخسر جميع أصدقائه، ولن تبقى له حينها تلك المكانة الاجتماعية التي تبوأها بين قومه.. ولذلك راح يرضيهم على حساب الحق.

لا شك أنك قرأت قصته في القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى مخاطبا لي ولك حتى لا نكون مثله: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (11) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25)ـ } [المدثر: 11 - 25]

ولهذا نهانا الله تعالى أن نجامل أحدا أيا كان على حساب الحقيقة، فقال: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: 24]

وأخبرنا فوق ذلك كله بأن الحق ثقيل، وأن الالتزام به مكلف، لأن أكثر الخلق ينفرون منه، ولا يحبون إلا من

يرضيهم على حسابه، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون: 70، 71]، وقال: {لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ} [الزخرف: 78]

وقد قال ﷺ مؤكدا ذلك: (الحق ثقيل مر، والباطل خفيف حلو، ورب شهوة ساعة تورث حزنا طويلا)(1)، وقال الإمام علي: (الحق كله ثقيل، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا نفوسهم، ووثقوا بصدق موعود الله لمن صبر واحتسب، فكن منهم واستعن بالله)(2)

ولهذا قال رسول الله ﷺ ناصحا لي ولك: (لا ترضين أحدا بسخط الله، ولا تحمدن أحدا على فضل الله، ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله، فإن ما رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضى واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط)(3)

وقد أعطى رسول الله ﷺ من نفسه المثل الأعلى على ذلك، فقد خرج من عباءة قومه الذين كانوا يقدرونه ويعظمونه ويسمونه الصادق الأمين.. لكنه لم يعبأ بكل ذلك المديح، وآثر أن يدعى ساحرا ومجنونا، على أن يدعى صادقا أمينا.. ما دام الحق هو الذي دعاه لذلك، فالحق أحق أن يتبع.

ومع كل تلك التضحيات التي قدمها في سبيل الله

---

(1) مكارم الأخلاق: ٢ / ٣٧١ / ٢٦٦١.

(2) تحف العقول: ١٤٢.

(3) رواه الطبراني في الكبير، انظر: تخريج أحاديث الإحياء = المغني عن حمل الأسفار (ص: 1713)

خاطبه الله تعالى بقوله: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [الشورى: 15]، وقال له:{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام: 150]

وهكذا فعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين واجهوا أقوامهم بكل قوة، ولم يرضخوا لمطالبهم، ولا تنازلوا عن مبادئهم، بل كان الحق ديدنهم الذي ضحوا في سبيله بكل شيء، حتى بأقرب الناس إليهم.

وهكذا كان ورثتهم من أئمة الدين والأولياء والصالحين، وقد قال الإمام علي متحدثا عن نفسه: (والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملةٍ أسلبها جُلب شعيرةٍ ما فعلت، وإنّ دنياكم لأهون عليَّ من ورقةٍ في فم جرادة، ما لعليّ ونعيم يفنى ولذةٍ تبقى)[1]

وقال للحارث بن حوط، الذي التبس عليه الأمر، فلم يدر من يرضي ومن يسخط: (إنّك امرؤ ملبوس عليك، إنّ دين الله لا يُعْرف بالرجال، فاعرِف الحقّ تعرف أهله)[2]

وكان يقول: (لو أنّ الباطل خَلُص من مزاح الحقّ لم يخفَ على المرتادين، ولو أنّ الحقّ خَلُص من لَبْس الباطل، انقطعت عنه ألسُن المعاندين ولكن يؤخذ من هذا ضغثٌ، ومن هذا ضغثٌ، فيمزجان فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى)[3]

---

[1] () نهج البلاغة، الخطبة:222.

[2] () نهج البلاغة، الحكمة:262..

وهكـذا عـانى ابنـه الإمـام الحسـين من أولئـك الـذين يرضون الناس بسخط الله، ويريدون أن يتبعوا الحق من غـير أن يقدموا أي تضحية في سبيله، وقـد روي أن رجلا من أهـل الكوفـة كتب إليـه يقـول: (يـا سـيّدي أخـبرني بخـير الـدنيا والآخرة)، فكتب إليه: (بسم الله الـرحمن الـرحيم، أمـا بعـد، فـإن من طلب رضـى اللـه بسـخط النـاس كفـاه اللـه أمـور الناس، ومن طلب رضى الناس بسـخط اللـه وكلـه اللـه إلى الناس والسّلام)(1)

وقد ضرب من نفسه وأهل بيته المثل الأعلى في ذلــك، حيث ترك جميع الخلق في سبيل الله، ولسان حاله يردد تلك الأبيات المنسوبة لرابعة أو إبراهيم بن أدهم (2):

تركتُ الخلقَ طُرّاً وأيتمتُ العيالَ
ولو قطّعتني في لَما مالَ الفؤادُ

وهكذا قال الزاهد العابد أويس القرني ـ ذلك الذي بشـر به رسول الله ﷺ وأثنى عليه ـ: (إن الأمر بـالمعروف، والنهي عن المنكـر لم يـدع للمـؤمن صـديقا، نـأمرهم بـالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعوانـا من الفاسـقين، حتى والله لقـد رمـوني بالعظـائم، وأيم اللـه لا أدع أن أقـوم فيهم بحقه)(3)

3() نهج البلاغة، الخطبة:50..

1() الاختصاص 225، أمالي الصدوق 167 - 168..

2() وهي من الأبيات التي ينسبها الكثير من الخطباء للإمام الحسين مـع أنهـا في الحقيقة ليست له، ولكن معناها صحيح النسبة إليه، بل هو أولى الناس بهـا، ولـذلك لا حرج على من ينسبها إليه، (انظر: أضواء على ثـورة الحسـين، السـيد الشـهيد محمـد الصدر، محقق : الشيخ كاظم العبـادي الناصـري، هيئـة تـراث السـيد الشـهيد الصـدر، النجف الأشرف، ص102 و103)

3() الاعتصام للشاطبي، (1/ 32)

وهكذا قال بعض العلماء يحدث عن نفسه، وعن فتنة التصنيف التي قد تكون حجابا دون العالم وبث الحقيقة التي يؤمن بها: (عجبت من حالي في سفري وحضري مع الأقربين مني والأبعدين، والعارفين والمنكرين، فإني وجدت بمكة وخراسان وغيرهما من الأماكن أكثر من لقيت بها موافقا أو مخالفا، دعاني إلى متابعته على ما يقوله، وتصديق قوله، والشهادة له، فإن كنت صدقت فيما يقول وأجزت له ذلك كما يفعله أهل هذا الزمان؛ سماني موافقا، وإن وقفت في حرف من قوله أو في شيء من فعله سماني مخالفا، وإن ذكرت في واحد منها أن الكتاب والسنة بخلاف ذلك وارد، سماني خارجيا، وإن قرأت عليه حديثا في الإيمان سماني مرجئا، وإن كان في الأعمال، سماني قدريا، وإن كان في المعرفة سماني كراميا، وإن كان في فضائل أهل البيت سماني رافضيا، وإن سكت عن تفسير آية أو حديث فلم أجب فيهما إلا بهما، سماني ظاهريا، وإن أجبت بغيرهما، سماني باطنيا، وإن أجبت بتأويل، سماني أشعريا، وإن جحدتهما، سماني معتزليا، وإن كان في السنن مثل القراءة، سماني شافعيا، وإن كان في القنوت سماني حنفيا، وإن كان في القرآن، سماني حنبليا، وإن ذكرت رجحان ما ذهب كل واحد إليه من الأخبار إذ ليس في الحكم والحديث محاباة قالوا: طعن في تزكيتهم.. ثم أعجب من ذلك أنهم يسمونني فيما يقرؤون علي من أحاديث رسول الله ﷺ ما يشتهون من هذه الأسامي، ومهما وافقت بعضهم عاداني غيره، وإن داهنت جماعتهم، أسخطت الله تبارك وتعالى، ولن يغنوا عني من الله شيئا، وإني مستمسك بالكتاب والسنة وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو وهو الغفور الرحيم)[4]

وهكذا اعتبر الغزالي من (شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه) مغرورا، لأنه (لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛

---

[4] النص لعبد الرحمن بن أبي عبد الله بن بطه، (توفي 470هـ)، وهو منقول بتصرف من الاعتصام للشاطبي (1/ 28)

وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه، وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضا الله أولى بالطلب)[1]

هذه نصيحتي إليك أيها الرفيق العزيز.. وما يهون تطبيقها لك ولي هو ترديدنا لقوله تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105].. فهذه الآية الكريمة تصور الواقع بكل دقة.. فنحن والخلق جميعا جالسون على خشبة المسرح.. وكل من ذكرهم الله تعالى يشاهدنا ويرانا.. ونحن مخيرون بأن نرضي الله ورسوله والمؤمنين، حين نؤدي أجمل الأدوار، أو أن نكتفي برؤية أولئك الأصدقاء الذين نخشى أن نخسرهم، فلذلك نضحي بالحقيقة في سبيلهم، وحينها نكون أسوأ الممثلين أولئك الذين يؤدون أقذر الأدوار في أخطر فلم سينمائي يرتبط به مصيرنا الأبدي.

(1) الإحياء: 4/ 350.

لا تخف أن يقطع رأسك

أيها الرفيق العزيز.. مالي كلما حدثتك عن مواجهة الباطل، والداعين إليه، رحت تتحسس رأسك، وتردد علي ما قال ذلك الجبان:

ألا لا تلوماني على | أخاف على فخارتي
ولو أنّني أبتاع في | إذا شئت ما باليت أن

أو قول الآخر:

يقول لي الأمير | تقدم حين جدّ بنا
ومالي إنّ أطعتك | ومالي بعد هذا

أو قول الآخر:

باتت تشجّعني عرسي | أن الشجاعة مقرون
للحرب قوم أضلّ الله | إذا دعتهم إلى مكروهها
ولست منهم ولا أهوى | لا الجدّ يعجبني منهم

أو قول ذلك الذي رؤي فارا من المعركة، فقرئ عليه قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا} [الأحزاب: 16]؛ فراح يقول لهم: (ذلك القليل أطلب)

هل تريد أن تكون كهؤلاء الجبناء.. وأين هم الآن.. وهل أغنى عنهم جبنهم شيئا.. وهل تظن أنك مختلف عنهم.. وأن الخلود الذي لم يكتب لهم سيكتب لك؟

ثم بعد هذا ـ أيها الرفيق العزيز ـ هل هناك محل لرأسي ورأسك أفضل من أن يحصل له ما حصل لتلك الرؤوس الطاهرة التي قُدمت على مذبح الحقيقة والعدالة، وهي تبتسم؟

ألم تعلم ما حصل لرأس يحي بن زكريا، ذلك النبي

الطاهر الممتلئ بالحنان والرحمة.. لقد كان الإمام الحسين كثير الحديث عنه، وقد ذكر أصحابه أنه لم يكن يدع مكانا إلا ويردد فيه قوله: (من هوان الدنيا على الله عزّ وجلّ أنّ رأس يحيى بن زكريّا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل)(1)

وكأنه كان في تلك اللحظات يتحدث عن رأسه التي شرفها الله تعالى بأن تصير قربانا للحقيقة والعدالة، وأن تصير دماؤه وجراحه الكثيرة رمزا للبطولة والثبات والشجاعة في مقارعة الباطل.. فلذلك لا تخف على رأسك، فإنه لو قطع في هذا السبيل، فسيلتحق بمثل تلك الرؤوس الطاهرة التي قدمت كل ما لديها قربانا لله تعالى.

لقد عرض الإمام الحسين على أصحابه ليلة عاشوراء أن يهربوا بأنفسهم، حاملين رؤوسهم معهم قبل أن تجتزها سيوف الظلمة، لكنهم لم يفعلوا.. وأبوا.. وقالوا بلسان مسلم بن عوسجة: (أنحن نخلي عنك، بما نعتذر إلى الله في أداء حقك؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، لا والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسول الله ﷺ فيك، أما والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أحيا ثم أذرى، يفعل بي ذلك سبعين مرة، ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، فكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها أبدا)(2)

وقالوا بلسان زهير بن القين: (والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وإن الله يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك)(3)

---

(1) بحار الأنوار 14/ 175.

(2) المرجع السابق.

وكان لهم أسوة في ذلك كله برسول الله ﷺ الذي لم يكن يهادن في الحق، وكان مستعدا كل لحظة لكل أنواع القتل، وقد قال في ذلك: (والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم بأن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله، ولوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل)(4)

هذه ـ أيها الرفيق العزيز ـ أمارات العشق الصادق.. فدع عنك كل الدعاوى الباطلة؛ فلا يثبت حبه وعشقه وولاءه إلا من باع نفسها كلها لله، ولم يكن كأولئك اليهود الذين كذبوا على أنفسهم عندما ادعوا مراتب لم يصلوها؛ فاختبرهم الله تعالى بقوله: {قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ } [الجمعة: 6، 7]

ثم بين خفة عقولهم في ترك ذلك العرض الذي قدم لهم، فقال:{قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8) } [الجمعة: 8]

وفي مقابل هؤلاء وصف المؤمنين الصادقين بقوله: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا } [الأحزاب: 23]

لذلك أقول لك أيها الرفيق العزيز.. أنت بين أمرين: بين أن تكف عن تلك الدعاوى العريضة التي تنادي بها في كل محل.. وبين أن تبذل نفسك في سبيل الحق، فلا تخاف في

3() المرجع السابق.

4() رواه البخاري 13 / 187، ومسلم رقم (1876)

الله لومة لائم، فأول علامات المحبة الصادقة لله، محبة لقائه، كما قال تعالى: { مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } [العنكبوت: 5]

وأجمل لقاء يمكن أن يتحقق لك مع الله هو أن تلقاه بعد أن تهبه كل ما تملك، وأول ما تملك روحك التي بين جنبيك، والتي هي له قبل أن تكون لك..

هذه هي ضريبة العشق الحقيقي الصادق.. فإن كنت مدعيا، فلا تتخط رقاب الصديقين، فقد قال سلطان العاشقين موبخا كل من يدعي هذه المراتب الرفيعة من دون أن يشم ريحها:

هو الحب فاسلم بالحشا ما ... فما اختاره مضنى به، وله
وعش خاليا فالحب راحته ... وأوله سقم، وآخره قتل
ولكن لدي الموت فيه ... حياة لمن أهوى، علي بها
نصحتك علما بالهوى والذي ... مخالفتي اختر لنفسك ما
فإن شئت أن تحيا سعيدا، ... شهيدا، وإلا فالغرام له
فمن لم يمت في حبه لم ... ودوناجتناءالنحل ما جنت
تمسك بأذيال الهوى واخلع ... وخل سبيل الناسكين وإن
وقل لقتيل الحب وفيت ... وللمدعي هيهات مالكحل
تعرض قوم للغرام، ... بجانبهم عن صحتي فيه
رضوا بالأماني، وابتلوا ... وخاضوا بحارالحب، دعوى،

لذلك أقول لك أيها الرفيق العزيز.. لا تتحسس رأسك كثيرا؛ فسيأتي اليوم الذي يصبح فيه مثل تلك الجماجم التي تراها في المتاحف الطبيعية.. وما أجمل أن يكون حينها مقطوعا في سبيل الحق والحقيقة.. حينها سيلتحق برأس يحي والحسين وميثم وحجر.. وكل تلك الرؤوس الطاهرة التي لا يزال أريجها الطيب يملأ الآفاق..

ليتك ـ أيها الرفيق العزيز ـ تشمه مثلما أشمه، لتعلم أن أعظم هدية يقدمها الله تعالى لرؤوسنا أن يقبلها في تلك الرؤوس المقطوعة، والأشلاء الممزقة.

لا تطفف في الموازين

أيها الرفيق العزيز.. لا تحسبن ذلك التهديد الشديد الذي توعـد اللـه بـه المطففين في المـوازين خاصـا بالبقـالين والجـزارين والعطـارين.. بـل هـو يشـملك أيضـا، ويشـملني، ويشمل النـاس جميعـا، وفي كـل موقـف يقفونـه، وعنـد كـل شهادة يدلون بها.

بل إن الوعيد المرتبط بي وبك أشد؛ فنحن قد اخترنا أن نطلب العلم، ونتحـدث فيـه، ويجلس بين أيـدينا التلامـذة، ويستفتينا الناس، وهم يأخذون دينهم ومواقفهم وأكثر شـؤون حياتهم من خلال ما ندعوهم إليه، أو نشهد أمامهم به..

فلـذلك كـان تطفيفنـا بالنسـبة لهم أخطـر من تطفيـف البقالين.. فالبقال قد ينقص من طعامهم حبة، أمـا نحن فقـد نهـوي على دينهم وحيـاتهم بمعاولنـا، فلا تقم بعـدها لحيـاتهم قائمة.

ربما لم تفهم عني ما أقصد بالضبط، ولذلك سأشرح لك من خلال بعض ما رأيته منك.. ولا تحسبني أتجسس عليك، أو أتتبـع عوراتـك، فمعـاذ اللـه أن أفعـل ذلـك.. ولكـني ــ بحكم الصداقة التي تجمع بيننا ـ كنت حريصا عليك؛ فالمؤمن مـرآة أخيه، وكاليدان تغسل إحداهما الأخرى.

لقد رأيتك في تلك الأيام المملوءة بـالفتن، وأمـام جمـع من الناس، جلسوا إليك منصتين يطلبـون شـهادتك وموقفـك مما يحدث في البلاد الإسلامية من دمار وخراب وسفك دماء، وكان في إمكانك أن تكون حكيما، وأن تشهد للـه، وأن تـذكر الحقيقة بجميع جوانبها.. لكنـك أبيت ذلـك، لا خوفـا من اللـه، وإنما خوفا من الحضور، لأنك تعلم أنهم قـد يضـعونك بسـبب موقفك في القائمة السوداء التي تقضي على سمعتك بينهم.

لقـد رحت تـدعو إلى الفتنـة، وقتـل الـرئيس، وكـل من يحيط به، وقتل العسكر الذي يحميـه، والشـرطة الـتي تحمي

المـوالين لـه.. لكنـك عنـدما سـئلت عن أولئـك الملـوك المستبدين الذين كانوا وراء ما يحصل من فتن، رحت تتملـق لهم، وتثني عليهم، وتعتبرهم من السائرين على سنن النبـوة، وأنت تعلم ما فعلوه بمال الأمـة وأعراضـها، وتعلم قبـل ذلـك أنهم أول الخونـة لشـعوبهم.. وتعلم أن تلـك الأمـوال الـتي وضعوها في خزائن عدوهم، كان يمكنها أن تسد كل مسـغبة، وتصلح كل مفسدة.

أنا أعلم الأدلة التي تستند إليها؛ فأنت تـذكر لي أن ذلـك الحاكم ظـالم، وأن من حـق الشـعب أن يثـور عليـه.. وقـد لا أخالفـك في هـذا، ولكـني أخالفـك في ذلـك التطفيـف الـذي جعلـك تـدين اللص الـذي سـرق بيضـة واحـدة، وتسـكت عن اللص الذي سرق شعبا كاملا.. وهذا هو التطفيف بعينـه.. بـل هذه هي شهادة الزور التي توعد رسول الله ﷺ من يقوم بهـا بالوعيد الشديد.

ثم إنك ـ أيهـا الرفيـق العزيـز ـ لا تطفـف في مواقفـك فقط، بل تطفف في أحكامـك أيضـا؛ حيث أنـك تصـنف ذلـك الشعب الذي وقف مـع حاكمـه ظالمـا، وتصـنف الـذي وقـف ضـده مظلومـا، وتضـع الجنـدي الـذي يحمي بلـده في خانـة المجرمين، وتضـع المرتـزق الـذي جـاء من بلاد بعيـدة ليقتـل الناس ضمن خانة المجاهـدين.. تفعـل كـل ذلـك من غـير أن تجـري تحقيقـا، ولا أن تسـمع شـهادة.. فهـل هكـذا يكـون القضاء؟

أليس من العجب أن يمكث المحققـون في قضـية قتـل واحدة، عشرات الأشهر يبحثون ويتداولون، ويُسمح للمتهمين بالاستئناف.. بينما أنت تحكم بأحكامك وفي لحظات معدودة، وفي قضايا ترتبط بعشرات الآلاف من القتلى..وليس لك من دليل سوى تلك القنوات التي تنفخ نار الفتنة أو أولئك العلماء الذين سكتوا عن اللصوص الكبار، وراحوا يفتون بتدمير مـدن اللصوص الصغار.

أليس هذا كله تطفيـف في المـوازين.. أم أنـك تـرى أن

البقال والجزار والعطار، سيوقف يوم الحساب لأجل النقير والقطمير.. ولا توقف أنت الذي حكمت على شعوب كاملة، وسكت على شعوب أخرى، مع أن الجرائم واحدة.

ليس ذلك فقط ــ أيها الرفيق العزيز ــ تطفيفك في الموازين.. فأنا أراك في كل حين تضع معايير مختلفة لوزن القضايا.. الواقعة منها والتاريخية.. وقد سمعتك مرة تدين الحروب الصليبية، وجرائمها في حق المسلمين.. وسمعتك في نفس اليوم تبرر حرق المتوكل لعاصمة جورجيا، وحرقه خمسين ألفا من سكانها، واعتبرت ذلك نصرا للإسلام..

فهل هذه شهادة لله، أم شهادة للشيطان، ألم تسمع قول ربك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: 8]؟

وهكذا رأيتك تتعامل مع كلمات ربك المقدسة؛ فأنت تحمل تنزيلها على تأويلك وفهمك، وتلزم غيرك به، بل تبدع من يخالفك فيه، مع علمك بأن الذين تخالفهم لا يقلون عن الذين يوافقونك؛ فهل أنزل الله عليك من الفهم ما لم ينزل على غيرك؟.. ولم لم تتواضع، وتعتبر ذلك فهمك، ثم تكل فهوم غيرك لربك الذي يحاسبهم ويدينهم، ويصنفهم كيف يشاء؟

وهكذا رأيتك تتعامل مع هدي نبيك؛ فأنت تصحح من أحاديثه ما يتناسب مع مزاجك، وتضعف ما لا يتناسب معه، ثم ترمي المخالفين لك بهجران السنة، والتزام البدعة، وأنت تعلم أنهم في مواردهم ومصادرهم لم يطبقوا سوى ما وصلهم من السنة التي يعتقدون صحتها، فهم يسيرون على ما هداه إليه علمهم.

وهكذا رأيتك تتعامل مع المسلمين؛ فتقسمهم إلى طوائف وأحزاب، تلقيها جميعا في النار، وكأنك مالك خازن

النيران، وكأن الله تعالى وكلك بأن تجيب جهنم عندما يقال لها: { هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ} [ق: 30]

وهكذا رأيتك تتعامل مع طائفتك التي تغض الطرف عن عيوبها، بل تحولها عيوبها محاسن، وتستعمل كل ما لديك من قدرات لكتمان ما لا تطيق علاجه من ثغراتها، لكنك في نفس الوقت تحول من حبة المخالفين لك قبة، وتنشر ما شاء لك الهوى من فضائحهم وعيوبهم، ولا تسترها عليهم، أو تدعو الله أن يهديهم سواء السبيل.

هذه بعض المشاهد التي رأيتها منك أيها الرفيق العزيز.. واعذرني لأني ذكرتها لك، فلو لم أفعل ذلك لكنت من المطففين في الموازين؛ فلا يحق لي أن أوجه نصائحي ووصاياي للأبعدين، وأترك الأقربين، وقد قال الله تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [الشعراء: 214]، وقال: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى } [طه: 132]

لا تقف ما ليس لك به علم

أيها الرفيق العزيز.. لو أنك تأملت قوله تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: 36] لخففت عن عقلك حمل تلك الأسفار الكثيرة التي ينوء بها ظهره، والتي لا مصدر لها إلا الظن المجرد.

فهي في عقلك مثل ذلك الطعام الكثير الذي يملأ معدتك من غير أن يكون له أي نفع لجسدك، بل هو مجرد ثقل كبير، تعاني جميع أجهزتك من هضمه وامتصاصه، ثم لا يكون بعد ذلك إلا شحوما زائدة تشوه منظرك، وتملأ حياتك بالأمراض.

وهكذا الطعام الذي تدخله على عقلك من غير أن تعرف مصدره، ولا منافعه أو مضاره، فإنه يوهمك بالري والشبع، ويجعلك بين الناس كالمنتفخ بالعلوم، لكنك في حقيقتك لست سوى جائع مريض بالبدانة؛ فلا تزيدك تلك العلوم إلا عللا وأمراضا وإرهاقا.

لذلك كانت الرياضة حلا لجسدك وعقلك.. فكلاهما يحتاجان إلى طرح الزوائد؛ فرياضة الجسد تزيل الشحوم التي ترهقك وتشوهك، ورياضة العقل بالتأمل والتفكير والتدبر تزيل كل تلك التي توهمتها علوما، وهي ليست سوى جهل مركب.

لست أدري هل فهمت عني ـ أيها الرفيق العزيز ـ ما قصدت، أم لم تفهم.. ولذلك سأذكر لك بعض مصادرك ومواردك، لعلنا جميعا، نكتفي بما ينفعنا، وندع ما يضرنا حتى نلقى الله، وعقولنا سليمة، وقلوبنا طاهرة.. فلا يمكن للقلوب أن تتطهر والعقول مدنسة.

لقد سمعتك قبل أيام تتحدث عن أهل الكهف الذين ذكرهم القرآن الكريم، وكان في إمكانك أن تكتفي بما ذكره،

ففيه من العبر ما يفيدك في دنياك وأخراك.. لكنك خشيت أن يسيء الحضور بك الظن، ويتوهموا أنه ليس لك من العلم بما حدث لأصحاب الكهف إلا بما ذكره القرآن الكريم، وتكون بذلك مساويا للعوام.. فلذلك رحت تتفنن في ذكر تفاصيل أعدادهم وأسمائهم ومكانهم وزمانهم، وتروي الروايات الكثيرة في ذلك، حتى أصيب الحضور بالانبهار لعلومك الكثيرة، والتي لا سند لها إلا الظن المجرد.

ولو أنك عدت للقرآن الكريم، وتأملت قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً} (الكهف:22)، لفهمت أن الله تعالى لو علم حاجتك لمعرفة عددهم لذكره؛ فكيف تستدرك على الله ما لم يذكره، ومن غير سلطان، ولا حجة إلا الظن المجرد، وأنت تعلم أن الظن أكذب الحديث.

وهكذا لو عدت إلى القرآن الكريم في إخباره عن مدة لبثهم في الكهف، لعلمت أن البحث في ذلك لا يجدي من دون مصادر موثوقة معصومة، حتى لا تملأ ذاكرتك وعقلك بتلك الأكاذيب التي تمليها عليك الظنون، فقد قال تعالى: {وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: 25، 26]

وهكذا دعانا القرآن الكريم إلى التحري والتدقيق.. فالعبرة ليس في أن تكثر علومنا ومعارفنا، ولكن العبرة في أن يكون ما نعرفه صحيحا، حتى لا تغير جيوش الجهل على ما لدينا من علوم، فتقضي عليها.

وهذا هو خطر تلك المعارف التي نملأ بها عقولنا، والتي أملاها علينا أولئك المدنسون بالأهواء، حيث أنها لم تستعمر فقط مداركنا العقلية، وإنما استعمرت مداركنا الوجدانية،

وتسللت بعدها إلى سلوكنا وأخلاقنا، وهذا ما جعلنا نزاحم الحقائق بالجهل، ونخلط اليقين بالظن، ونملأ بعد ذلك عقولنا شحوما زائدة، تملأه بالأمراض.

لست أدري هل فهمت قصدي ـ أيها الرفيق العزيز ـ بعد هذا المثال أم لا.. وإن لم تفهمه.. فاطرح على عقلك هذا السؤال، واجعله نوعا من الرياضة التي تطهره مما قد يؤذيه.

لاشك أنك قبل قراءتك لتلك التفاسير الكثيرة التي كنت تفخر بمطالعتها كل حين، كنت تقرأ القرآن الكريم، وكنت تقرأ سورة يوسف، وكنت أراك وأنت شاب يافع تمتلئ حبا لها، وإعجابا بيوسف عليه السلام الذي كان عندك مثالا للطهر والعفاف وكل الأخلاق النبيلة..

لكني بعد ذلك لم أعد أراك تذكره.. بل إني سمعتك مرة تنقل من أقوال المفسرين عنه ما أساء إليه أعظم إساءة، ولاشك أن ذلك قد سرى لوجدانك، فتغيرت تلك الصورة الجميلة لذلك النبي الكريم في نفسك بعد أن زاحمتَها بتلك الصور التي رسمها لك المفسرون، ومن المصادر التي اختلطت فيها الحقيقة بالزيف، واليقين بالظن.

نعم أنت الآن في نفسك تتصور أنك أكثر علوما.. لكن الحقيقة ليست كذلك.. بل أنت الآن أكثر شحوما.. وتحتاج إلى رياضات تأملية كثيرة لتطرحها عنك، وتخلص عقلك منها، فقد سرت إليه أمراضها، وجعلته يفكر بطريقة غير التي جبل إليها.

أنت الآن ـ أيها الرفيق العزيز ـ أسير لتلك الكتب التي سقطت عليك، وراحت تخنقك، وتمنعك من أن ترى الحقيقة، لأنك تخاف إن رأيتها أن تتبخر أكثر تلك العلوم التي تباهي بها، وتتوهم أنك تتميز بها عن سائر الناس.

ليس ذلك فقط ـ أيها الرفيق العزيز ـ ما أردته بوصيتي هذه.. بل هناك ما هو أخطر منها.. فأنا أراك تترك تطبق قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: 103]، لتطبق ما أشار إليه قوله تعالى في حديثه عن أولئك {الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} [الأنعام: 159]

أتعلم سبب ذلك.. إنه واضح أيها الرفيق العزيز.. وهو أنك لم تلتمس الحقيقة من أهلها، وإنما التمستها من أعدائها.. لقد سمعتك تتهم تلك الفرقة الكريمة من فرق المسلمين بالقول بتحريف القرآن من غير أن تتحرى، ولا أن تبحث، ولا أن تسافر إلى بلادها، ولا أن تسأل علماءها.. بل اكتفيت بمصدرك المملوء بالأهواء، والذي لم يقصد من رميها بذلك إلا تشويهها.. وكان في إمكانك أن تتحرى، وتبحث، لكنك لم تفعل.. لأنك أنت أيضا صرت تحب تشويهها..

والحقيقة إذا خضعت للأهواء صارت كذبا، وصارت شحوما زائدة، وضارة، لأنك يوم القيامة ستسأل عن تلك الجرائم التي اقترفتها بسبب تلك الاتهامات التي أرسلتها من غير أن تتحرى، ولا أن تتأكد.. بل كان قائدك الظن والهوى..

وهكذا أيها الرفيق العزيز رحت تتعامل مع كل القضايا، فأنت تقرب المصادر التي تخدم هواك، وتبعد المصادر التي تخالفه، مع أن الله تعالى أمرك بالعدل، وأن تتعامل مع كل شيء بما يتطلبه من تحر وتدقيق وتحقيق.. وإلا وقعت أسير هواك.. وملأت عقلك بالقيود التي تحول بينه وبين إدراك الحقائق.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال مخاطبا نبيه المعصوم داود عليه السلام:: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ} (صّ:26)

فإن كان داود عليه السلام، وهو النبي الكريم، يؤمر بذلك، فكيف بنا نحن المدنسين بالأهواء.. لذلك راقب قلبك

وعقلـك عنـد كـل خـبر أو معلومـة تفـد إليهمـا.. فمـا أكـثر الفاسقين الـذين لن يملأوا عقلـك إلا شـحوما وسـموما، وقـد قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَـأٍ فَتَبَيَّنُـوا أَنْ تُصِـيبُوا قَوْمـاً بِجَهَالَـةٍ فَتُصْـبِحُوا عَلَى مَـا فَعَلْتُمْ نَـادِمِينَ} (الحجرات:6)

بعـد هـذا، أيهـا الرفيـق العزيـز أدعـك لتمـارس بعض الرياضـة لعقلـك، فتمسـح عنـه كـل معلومـة لا مصـدر لهـا، وسترى كيف تشعر بالسعادة والراحة، لأن ثقـل تلـك العلـوم التي ينوء بها عقلك هي التي منعته من التفكير السليم، ذلـك أن العقل المحاصر بالأكاذيب لن يهتدي للحقيقة أبدا.

ولا تخف إن صرت عاميا بعد ذلك، فلأن تلقى الله عاميا عاقلا خير من أن تلقاه عالمـا مجنونـا.. ولأن تلقى اللـه وأنت بفطرتـك النقيـة الـتي لم تدنسـها القـراطيس الملطخـة بالسموم، خير من أن تلقاه، وأنت ممتلئ بكل أنواع الخبث.. وأنت تعلم مصير الخبث.. فقد قال اللـه تعـالى: {لِيَمِـيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَـهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَـهُ جَمِيعًـا فَيَجْعَلَـهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِـرُونَ (37)} (الأنفال)

لا تيأس.. فالله موجود

أيها الرفيق العزيز.. لقد رأيتك البارحة، وأنت تشكو ما نزل بك من البلاء إلى الذي تعلم أنه لا يستطيع أن يفعل لك شيئا، لأنه مثلك، يداه كيديك أقل من أن تمتد لنفع نفسه، فكيف تمتد لنفعك؟

ولذلك دعك منه.. ودعك من الخلق جميعا.. فهم جميعا فقراء مستضعفون.. وارفع يديك إلى الذي يملك كل شيء، وبيده ملكوت كل شيء.. وله الأسماء الحسنى التي تمتد إليك كل حين لتتعلق بها، وتسير إلى الله من خلالها، لكنك تتركها، وتتعلق بالسراب، وبحبال الأوهام التي لا تملك لك نفعا، ولا تدفع عنك ضرا.

لقد سمعتك تذكر أن حالتك مستعصية، وأن ما نزل بك لا يمكن حله، وأن كربك لا يمكن كشفه.. وأنت محق في ذلك ما دمت تمد يديك إلى من هو أضعف منك.. لكنك لست محقا في ذلك إن أنت مددت يديك إلى من لا يعرف المستحيل، لأنه على كل شيء قدير.

وكيف لا تمد يديك إليه، وهو الذي تولى تدبيرك في جميع أطوارك، منذ ذلك اليوم الذي خاطبك فيه بقوله: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ } [الأعراف: 172]، ووفقك فيه لمعرفته، وغرس في فطرتك الاستنجاد به.. فهو لم يخلقك، ولم يعرفك بنفسه، ليتركك، وإنما خلقك ليقبلك.. والشأن ليس في قبوله لك.. فهو الكريم الذي لا يرد مقبلا.. ولكن الشأن في إقبالك عليه.. فإن أقبلت إليه استقبلك، وإن سعيت إليه آواك، وإن استنجدت به أنجدك، وإن استغثت به أغاثك.

ألم تعلم أنه في الوقت الذي لم يكن فيه أولئك الذين شكوت إليهم.. وكنت صبيا صغيرا، ضعيفا لا تملك لنفسك شيئا.. كيف غرس الرحمة في قلب والديك، فحضناك وأطعماك، ووفرا لك كل ما تحتاجه، وأبعدا عنك كل ما

يضرك.. هل تحسب أن والديك هما اللذان قاما بـذلك.. كلا.. فهو الذي قام بذلك.. وما والـدك إلا واسـطة رحمتـه، وحبـال كرمه.. فلذلك اشكره قبل أن تشكرهما، وارجع إليـه، فالـذي كفلك صغيرا لن يتركـك كبـيرا.. لكن بشـرط واحـد، وهـو أن تبكي عليه كما كنت تبكي على والديك.

ألم تعلم ـ أيها الرفيـق العزيـز ــ أنـه ليس المـدبر لـك وحدك.. بل هو المدبر للكون جميعا.. فمـا من ذرة من ذرات الكون إلا وهي تسبح بحمده، وتمـد يـدها إليـه تطلب منـه أن يمدها بجوده وكرمه.. فلـولا جـوده مـا رأيت موجـودا.. ولـولا كرمـه مـا رأيت شـيئا.. فالكـل فيض من فيوضـات رحمتـه، والكل مظهر من مظاهر أسمائه الحسنى.. أفيعجز من يملك كل شيء، أن يوفر لك ذلك الذي حـزنت عليـه، وأسـفت من أجله، وامتلأ قلبك يأسا بسببه؟

لقد رأيت ـ أيها الرفيق العزيز ــ أنـك تتعامـل مـع ربـك، كمـا تتعامـل مـع المستضـعفين من أمثالـك، فتتـوهم أن المستحيل الذي وقفت أمامه حائرا، هو أيضـا مسـتحيل على ربك.. ذلك مستحيل، فربك على كل شيء قـدير.. فقـط جـد لك إيمانا كإيمان موسى عليـه السـلام، وسـترى البحـر كيـف يُشق أمامـك.. فموسـى عليـه السـلام لم ييـأس عنـدما رأى البحر أمامـه والعـدو وراءه، وإنمـا قـال بكـل ثقـة: {إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} [الشعراء: 62]

وهكذا قال رسول الله ﷺ في ذلك الموقف الحرج الذي لم يكن يحـول بينـه وبين المشـركين المتربصـين الحاقـدين سوى خيوط العنكبوت.. حينها قـال بكـل ثقـة لصـاحبه الـذي امتلأ حزنا: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]

وأنت أيضا يمكنك أن تردد ذلـك، وحينهـا سـتتنزل عليـك ملائكة الرحمة، لتمسح عنك كل أسـى، وتـرد عنـك كـل أذى، وتخاطبـك بكـل حنـان، أنت ومن معـك من الصـادقين المستقيمين على صراط الله، وتقـول لـك ولهم: {أَلَّا تَخَـافُوا وَلَا تَحْزَنُـوا وَأَبْشِـرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ (30) نَحْنُ

أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ} [فصلت: 30 - 32]

وهكذا يمكنك أن تردد وأنت مريض ما ردده قبلك أيوب عليه السلام بكل هدوء، بعد أن يئس الأطباء من شفائه.. لكنه سخر من يأسهم لأنه يعلم أنه لا وجود للمستحيل ما دام الله موجودا.. ولذلك راح يردد بكل خشوع وثقة: {أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [الأنبياء: 83]

وهكذا يمكنك أن تقتفي آثار زكريا عليه السلام، وتطلب ما تشاء من الولد، حتى لو ذكر لك الأطباء، أنه لن يكون لك ولد.. فقط اجعل قلبك واثقا في الله كما كان قلب زكريا، وسترى العجائب.. لقد قال مخاطبا ربه: {رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ } [الأنبياء: 89]، وما إن دعا بتلك الثقة حتى تنزلت الإجابة.

وهكذا يمكنك أن تفعل ما فعله يونس إذا التهمتك حيتان المصائب والمشاكل، وأفرزت عليك إنزيماتها القاتلة.. يكفي أن تشعر بأن لك إلها يملكها، ويملك التحكم فيها، وفي كل شيء.. خاطبه بكل أدب وتواضع وذلة، وردد ما ردده يونس عندما قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } [الأنبياء: 87]، وسترى أن الذي أجابه سيجيبك لا محالة، فقد قال واعدا لك ولكل المؤمنين: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: 88]

وهكذا يمكنك إن استبد بك الجوع، وضاق عليك الرزق، أن تفعل ما فعلته مريم عليها السلام.. وسترى كيف يتنزل الرزق عليك من الغيب أو من الجيب.. من القدرة أو من الحكمة.. وحينها إذا سألك زكريا عن مصدر رزقك، فقل له بكل ثقة: {هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} [آل عمران: 37]

وهكذا يمكنك إن ضاقت بك الأرض بسبب المجرمين

وقطاع الطرق المحيطين بك، أن تلجأ إلى الله كما لجأ لـوط عليه السلام.. وسترى كيف تأتيك الملائكة، وتقول لك ــ كمـا قالت له ـ { إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ } [هود: 81]

لا تيأس أيها الرفيق العزيز.. فالله ما قص عليك قصـص فضـله لتتسـلى بهـا، وإنمـا قصـها عليـك لتتمثلهـا وتعيشـها.. فالـذي أكـرمهم يمكن أن يكرمـك.. والـذي أنقـذهم يمكن أن ينقذك.. والذي تفضل عليهم يمكن أن يتفضل عليك.

ليس عليك ـ أيها الرفيق العزيز ــ سـوى أن تتوجـه إليـه بصدق وثقة.. وحينها ستضحك على تلك الأنات الـتي أرسـلتها أمام أولئك المستضعفين الذي لا يملكـون لأنفسـهم حـولا ولا قوة.

هيا أيها الرفيـق العزيـز.. قم.. فهـو لم يرسـل لـك ذلـك البلاء إلا لتــذهب إليــه.. فهــو يحب أن يســمع صــوتك وأنت تناجيه.. وسترى أن حلاوة مناجاته وحدها تكفي لتغسل قلبـك من كل أدران الدنيا، ومخاوف الآخرة.

لا تجعل من الشفاعة شماعة

أيهـا الرفيـق العزيـز.. لقـد رأيتـك لا تبـالي بخصـوماتك الكثـيرة مـع الخلـق، فـأنت لا تبـالي باسـتحلالك لأمـوالهم وأعراضهم، وكأن الله ما خلقهم إلا كما خلق طعامك ولباسك ومتاعك..

ورأيتـك فـوق ذلـك تسـتنجد كـل مـا فعلت جريمـة من جرائمـك في حقهم بنبيـك، لتطالبـه بـأن يشـفع لـك، وتكتفي بـذلك، مـع أن نبيـك نفسـه طالبـك بـأن تـذهب إليهم ليـبرئوا ذمتك في الدنيا قبل ألا تغني عنك أي شفاعة في الآخرة.

لقد شبهتك ـ أيها الرفيق العزيز ـ حين تفعل ذلك، بـذلك الصبي المشاغب الـذي يخاصـم زملاءه وأسـاتذته، ثم يحضـر والده، ليترجاهم جميعا، بأن يشملوه بعفوه، ويبـذل في ذلـك الكثير من كرامتـه وحيائـه.. وقـد كـان في إمكانـك أن تكـون كذلك الصبي المجتهد الطيب الذي يفخر به والده، ولا يطالَب بالحضور إلا لتكريمه على حسن تربيته لولده.

وهكذا أنت.. فبدل أن ترفع نفسـك لمقـام فـرح رسـول اللـه ﷺ بـك، واسـتقباله لـك، لحسـن حفظـك لعهـدك معـه، وحسن سيرك في خلافته له.. رحت تطالبـه بـأن يتـدخل لـك عند أولئك الذين أسأت إليهم في الـدنيا، فراحـوا يخاصـمونك في الآخرة.

هذه هي الحقيقة ـ أيها الرفيق العزيز ـ فلا تتوهم.. فالله هو رب الآخرة والـدنيا.. وقـوانين العدالـة الإلهيـة لا تتخلـف.. ولذلك فإن لخصومك من الاعتبـار في الآخـرة مـا يجعـل لهم الحـق في الطعن في كـل حكم يصـدر عليـك إن أضـر ذلـك بهم.. ولذلك ترتفع الخصومات واللجاجات.

لا تتـوهم أن هـذا كلامي.. فأنـا أضـعف من أن أعـرف الدنيا، فكيف أعرف الآخرة؟.. لكن هذا كلام ربـك، ولا تبـديل لكلماته، فقد قال لك ولي ولكل الخلق، يصـف هـذا المشـهد

من مشـاهد الآخـرة: { وَبُـرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَـاوِينَ (91) وَقِيـلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُـونَ (95) قَـالُوا وَهُمْ فِيهَـا يَخْتَصِـمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَـوِّيكُمْ بِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ (98) وَمَـا أَضَـلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُـونَ (99) فَمَـا لَنَـا مِنْ شَـافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَـرَّةً فَنَكُـونَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ (102)} [الشعراء: 91 - 102]

لا شك أنك ستشمخ بأنفك، وتقـول لي: هـذا مشـهد من مشاهد الكفار والمشركين.. وأنا بحمد الله مؤمن موحد كابرا عن كابر..

وأنـا لن أكـذبك في ذلـك.. ولكـني أذكـر لـك بـأن بعض خصومك الـذين أسـأت إليهم، لم يكتـف بخصـومتك، بـل راح يخاصم ربك بسببك.. فقد كنت تصور لهم كل حين أنك ممثل للدين، وأنك لا تقول إلا الحـق.. ولا تفعـل إلا الخـير.. وعنـدما شكاك إلى الناس راحوا يتهمونه ويبرئونك، ويعتذرون له بأنك رجل دين..

وقد جعله ذلـك ينفـر من الـدين، وكنت أنت سـبب ذلـك النفور.. ولذلك سيكون خصمك.. لا على الأموال التي سـلبتها منه.. ولا على استحلال غيبته وقذفه.. وإنمـا على دينـه الـذي سلبته منه، وربه الذي حجبته عنه.

فهل تتصور ـ أيهـا الرفيـق العزيـز ـ أن رسـول اللـه ﷺ الذي كان حريصا على إيمان الناس، ويتألم بكـل ألـوان الآلام في سبيل إيصال الرسالة إليهم بيضـاء نقيـة معطـرة بأجمـل العطور، يشفع لـك لتـدخل الجنـة، ثم يـدخل من تسـببت في إلحاده وجحوده إلى النـار؟.. هـل تتصـور أن رسـول اللـه ﷺ سيستقبلك، وهو راض عنك بعد أن تسببت في قتل فــرد من أمته، لا قتل جسده، وإنما قتل روحه؟

وليتك فعلت ذلك مع فرد أو فردين من النـاس.. بـل إن

روائح ما فعلته انتشرت.. وصار الناس يتحدثون، والإعلام يتحدث.. وكلهم يذكرون ما فعلت.. ويستشهدون به لا على جرائمك، وإنما على جرائم الدين.. فقد كنت أنت عندهم مثالا للدين.. وكانت جرائمك جرائم للدين.

لا أريدك أيها الرفيق العزيز أن تيأس.. ولكني أريدك أن ترفع تلك الشماعة التي استطلت بها على الخلق، حين جعلت من نبيك مجرد محام، وعن أسوأ الجرائم..

ولذلك يمكنك بدل أن تبحث عن الشفعاء في الآخرة، أن تبحث عن الخصماء في الدنيا، فترضيهم، ولو على حساب شرفك وكرامتك.. افعل مثلما يفعل ذلك الوالد الذي يبذل ماء وجهه من أجل أن يرضي المدير والأستاذ والتلاميذ حتى يسمحوا لولده..

فكذلك فافعل.. صح في الناس، وفي الأسواق، وأمام المنتديات بما كان يصيح به ذلك المقدس الطاهر الذي صاح في عرفات، وأمام الناس جميعا قائلا: (أنا الذي أسأت، أنا الذي أخطأت، أنا الذي هممت، أنا الذي جهلت، أنا الذي غفلت، أنا الذي سهوت، أنا الذي اعتمدت، أنا الذي تعمدت، أنا الذي وعدت، أنا الذي أخلفت، أنا الذي نكثت، أنا الذي أقررت)[1]

ولا تكتف بذلك، بل اذهب وقبل رأس يد ورجل كل من أسأت إليه، واطلب منه أن يبرئ ذمتك، وابذل في ذلك كل مالك.. فلأن تلقى الله فقيرا من المال، خير من أن تلقاه فقيرا من الحسنات.. ولأن تلقى الله وقد فُضحت بين البشر خير من أن تلقاه وقد فُضحت بين الملائكة والأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين.

عندما تتخلى عن نفسك، وتفعل ذلك ــ أيها الرفيق العزيز ـ وينتشر عطر ما فعلته بين الناس، ستعود للدين هيبته واحترامه، وحينها ستُكسر تلك الجدر التي كنت وضعتها

[1] من دعاء عرفة للإمام الحسين.

لتحجب عن شمس الهداية.

هذه أيها الرفيق العزيز وصيتي إليـك.. وأنت تعلم أني لا أنكر الشفاعة، وكيف أنكر ما ورد في كلمات ربي المقدسة.. ولكني أدرك أيضا أن هذه الشفاعة وسـيلة تـدعو إلى العمـل الصالح، وليست شماعة للمعاصي والجـرائم.. وأنـا أدرك أننـا مهما عملنا، فـإن التقصـير لابـد أن يسـري لأعمالنـا.. ولـذلك تكون الشفاعة درءا لذلك التقصير.

أمــا أن نتكاســل ونتواكــل، ثم نطلب من الشــفعاء أن يشفعوا لنا عنـد اللـه.. فـإن حالنـا حينهـا يشـبه ذلـك الصـبي الكسـول الـذي لا يراجـع درسـا، ولا يـراعي أدبـا، ثم يحضـر والده، ليحوله من صف الراسبين إلى صف الناجحين.. وذلـك لن يكون أبدا.

لا تنشغل إلا بعيوبك

أيها الرفيق العزيـز.. لا تشـتغل إلا بعيوبـك؛ فلسـت من الملائكة الذين وكل إليهم كتابة السـيئات والمعاصـي، ولا من الموازين التي كلفت بوزنها.. ولست أنت الـديان الـذي يـدين الخلق عليهـا.. أنت لم تُكلـف إلا بمحاسـبة نفسـك ومعاقبتهـا وتهذيبها.

أما الخلـق؛ فـإن دورك ينتهي معهم بالنصـيحة والـدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أما الاشـتغال بعيـوبهم، والبحث عن فضائحهم ونشرها وقذفهم بها، فلن يطهر قلبــك من أدرانه، ولن يمحو من سجل سيئاتك ما أرتكبت يداك.

لقد اتفـق على هـذا كـل العقلاء والناصـحين من الأنبيـاء والمرسلين، والأولياء والصالحين.. ولسـت أراك تسـمعهم، أو تبالي بهم، مع أنهم لم يتركوا وسيلة للنصح إلا استعملوها.

لقد خاطبك المسيح عليه السلام كما خاطبني، وخـاطب جميع أولئـك الغـارقين في مسـتنقعات الأحقـاد الـتي جعلتهم ينشغلون بعيوب جيرانهم وأقـاربهم وأصـدقائهم عن عيـوبهم، فقال: (لا تنظروا إلى عيـوب النـاس كالأربـاب، وانظـروا إلى عيوبكم كالعبيـد، إن الرجـل يبصـر القـذاة في عين أخيـه، ولا يبصر الجذع في عينيه، وإنمـا النـاس رجلان: معـافًى ومبتلًى، فاحمدوا الله على العافية، وارحموا المبتلى)

ومثلـه قـال لنـا رسـول اللـه ﷺ في وصـيته لأبي ذر: (ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسـك.. كفى بـالمرء عيبـا أن يكون فيه ثلاث خصـال: يعـرف من النـاس مـا يجهـل من نفسه، ويسـتحيي لهم ممـا هـو فيـه، ويـؤذي جليسـه فيمـا لا يعنيه)، ثم قال: (يا أبا ذر، لا عقـل كالتـدبير، ولا ورع كـالكف، ولا حسب كحسن الخلق)(1)

---

(1) رواه الطبرانى، والبيهقى فى شعب الإيمان، وابن عساكر عن أبى ذر، جـامع الأحاديث (10/ 261)

وقــال مبشــرا بــالجزاء العظيم لمن اكتفى بالاهتمــام بعيوبه: (طوبى لمَن شغله عيبه عن عيوب الناس)(1)

وقـال موبخـا من لم تردعـه عيوبـه عن النظـر لعيـوب الناس: (يبصر أحـدكم القـذى في عين أخيـه، وينسـى الجـذع في عينيه)(2)

ومثلهمــا، نطــق جميــع الحكمــاء، منبهين إلى خطــورة الأمـراض المعديـة الـتي تنتقـل إلينـا عنـدما نـترك الاهتمـام بتصفية قلوبنـا، وكنس القـاذورات عن أرواحنـا، لننشـغل عن قمامتنا بقمامة غيرنا.

وقـد قـال أحـدهم معـبرا عن ذلـك: (يا ابن آدم، إنك لن تصـيب حقيقة الإيمـان حـتى لا تعيب النـاس بعيب هو فيـك، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك، فـإذا فعلت ذلك كان شُغْلَك في خاصة نفسك، وأحبُّ العباد إلى اللـه مَن كان هكذا)

وقال آخر: (تشوّفك إلى ما بطن فيـك من العيـوب خـير من تشوّفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)

وقال آخـر، وهـو يضـع الاحتمـالات المختلفـة، والـتي لن تربح منها إلا الخسارة وضياع الوقت:

فإنْ عبتَ قومًا بالذي ... فكيف يصيب الناسَ

وإن عبت قومًا بالذي ... فذلك عند الله والناس

وقال آخرُ متعجبا:

عجبتُ لمَن يبكي على ... دُمُوعًا ولا يبكي على

(1) رواه البزار، ورواه الحكيم الترمذي (1/241)

(2) رواه ابن المبـــارك (ص 70، رقم 212)، والبخـــارى فى الأدب المفـــرد (1/207) ، وابن حبان (13/73، رقم 5761)

وأعجب من ذا أن يرى عظيمًا وفي عينيه عن

وقال آخر داعيا لك لأن تكون كذلك المريض الذي يشغله ألمه عن آلام الآخرين:

المرء إن كان أشغله عن عيوب
كما العليل عن وجع الناس

وقال آخر محذرا لك من أن تصبح مرمى لسهام من تبحث عن عيوبهم، لأنهم لن يكفوا عن البحث عن عيوبك:

لا تلتمس من مساوي فيهتكَ الناس سترًا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ولا تَعِبْ أحدًا عيبًا بما

وقال آخر مذكرا لك بالاكتفاء بمشاهدة البرامج التي تبثها قناتك، ففيها الكفاية لك عن برامج قنوات غيرك:

قبيحٌ من الإنسان ويذكر عيبًا في أخيه
ولو كانَ ذا عقل لَمَا وفيه عيوب لو رآها

وقال آخر مبينا لك كيف تخاطب نفسك إن دعتك إلى البحث عن عيوب غيرك:

إذا شئت أن تحيا وحظُّك موفور
لسانك لا تذكُرْ به فكلّك عوراتٌ وللناس
وعينك إن أبدتْ إليك فصُنْها وقل يا عينُ

وقال آخر عندما سئل عن العلاج الذي جعله يترك الغيبة والتجسس وكل ما يدفعه إلى البحث عن عيوب الناس: (لست عن حالي راضيًا، حتى أتفرغ لذم الناس)، ثم أنشد يقول:

لنفسيَ أبكي لستُ لنفسيَ من نفسي عن

وقال آخر لأخيه بعد أن ذكر له حبه له: (لو علمتَ مني ما أعلم من نفسي لأبغضتني في الله)، فقال له أخوه: (لو

علمتُ منـك مـا تعلم من نفسـك، لكـان لي فيمـا أعلم من نفسي شغلٌ عن بغضك)

هذه أيها الرفيق العزيز كلها خطابـات لي ولـك لننشـغل بالبحث عن عيوبنـا، مـا ظهـر منهـا، ومـا اسـتتر، أمـا غيرنـا.. فنحن لم نكلـف معهم بغـير النصـيحة والـدعوة والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يعني ذلك ـ أيها الرفيق العزيز ـ أن تجلس في بيتك، وتهتم فقط بنفسك، فالأمر ليس كذلك، فقد قال رسول اللـه ﷺ: (من أصبح وهمه غير اللـه عـز وجـل فليس من اللـه في شيء، ومن لم يهتم للمسلمين فليس منهم)[1]

ولـذلك لـك أن تقـف في وجـه الظلمـة والمسـتبدين ومحرفي الأديان، فأنت مكلف بمواجهتهم ونصحهم والتحـذير منهم، وقـد قـال اللـه تعـالى: {وَإِنْ نَكَثُـوا أَيْمَـانَهُمْ مِنْ بَعْـدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُـوا فِي دِينِكُمْ فَقَـاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْـرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَـانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ} [التوبة: 12]

ولكن احذر أن تواجههم بنفسك وأحقـادك.. بـل واجههم بالحق.. فالحق وحده الوسيلة الـتي يحـل لـك اسـتعمالها في مواجهة الباطـل، والمعـروف وحـده الوسـيلة الـتي يحـل لـك استعمالها في مواجهة المنكر.

واجـه بـاطلهم بـبراهين الحـق.. وواجـه منكـرهم بـأنوار المعروف.. ولتكن ممثلا للحق في مواجهتك بأخلاقـك وآدابـك وسمتك، فأنت لم تطـالب بـأن تهـدي النـاس، وإنمـا طـولبت بـدعوتهم، وأنت لم تطـالب بالانتصـار، وإنمـا طـولبت ببـذل الجهـد.. وأولـه أن تجاهـد نفسـك، وتقـوم بتطهيرهـا من كـل عيوبها.. ذلك أن عيوبها أكـبر الحجب الـتي تحـول بينهـا وبين الدعوة للحق، أو استماع الخلق له.

---

[1] () رواه الحاكم في المستدرك (4/356)

لا تدنس دينك بالأهواء

أيها الرفيق العزيـز.. دينـك رأس مالـك، وفيـه سـعادتك وشقاؤك.. ومنه تصدر مواقفك وسلوكاتك.. فحافظ عليه من فيروسات الأهواء، وسموم الآراء، وجراثيم القيل والقال التي لو تماديت عليها، فستحوله من [دين الله] إلى [دين البشـر]، والله أمرنا أن نعرفه ونعبده ونسـلك الطريـق إليـه من خلال دينـه الـذي شـرعه، لا من خلال الأهـواء الـتي شـرعناها، أو شرعها الأنداد الذين اتخذناهم من دون الله.

أظن أنك قـد فهمت قصـدي.. ولعلـك أيضـا مقتنـع بـه.. فكل شيء يدل عليه.. لكنك تأبى أن تقـر بالحقيقـة، لا لعـدم وضوحها، أو عـدم مـا يـدل عليهـا، وإنمـا لخوفـك من قومـك الذين أسروك في سجونهم، فصرت لا تفكر إلا بعقـولهم، ولا تتحـدث إلا بألسـنتهم، أمـا عقلـك، فقـد وضـعته في الأغلال، ورميت بـه في الزنـازن، وقيدتـه بجميـع القيـود، ومنعتـه من التفكير والبحث والنظر.

وأنا لا أريد أن أخرجك من قومك، بـل أريـدك أن تخـرج أنت وقومـك من ذلـك التيـه الـذي أوقعتم دينكم فيـه، حين ألصقتم به كل شيء.. حـتى صـار ثقيلا جـدا.. لا يمكن لعاقـل أن يقتنع بكل تلك الانحرافات التي زجحتموها فيه رغم أنفه.

أجبني ـ أيها الرفيق العزيز ــ عن علاقـة دين اللـه بـذلك الاسـتبداد الـذي مثلـه معاويـة ومثلـه من أصـحاب الملـك العضوض، الذين جعلوا من عباد اللـه خـولا لهم ولعشـائرهم، فبـدلوا أن تسـمى دولـة الإسـلام باسـم الإسـلام، أو باسـم مؤسسـها محمـد رسـول اللـه ﷺ تسـمت بأسـماء الأمـويين والعباسـيين والعثمـانيين.. وغـيرهم ممن تعـرفهم، وتعـرف جرائمهم.

هـل يمكنـك أن تقنـع أحـدا من النـاس بعدالـة الإسـلام، وأنت تجعـل معاويـة رمـزا من رمـوز الإسـلام، ومقدسـا من

مقدساته.. مع علمك بما ورد فيه من نصوص مقدسة، وأنه يحرف الإسلام، ويحوله من دين إلهي إلى دين بشري.. لكنك لا تبالي بأحاديث رسول الله ﷺ.. ولا تبالي بعدها بتلك العترة الطاهرة التي اتفقت على تحريفاته وحذرت منها وضحت بكل شيء في سبيل مواجهته..

أنت لا تبالي بكل ذلك، وترضى أن يدنس الدين وجميع قيمه في سبيل الحفاظ على شخص كان هو وأبوه وأمه وعشيرته من أعظم المحاربين لرسول الله ﷺ، ثم صار من الطلقاء الذين تؤلف قلوبهم، ثم فجأة ترتقي به المناصب دون أولئك السابقين، ليتحول إلى الملك الأول في الإسلام.. ولست أدري هل يمكن أن يقبل عقل يقرأ كلام الله، ويفهم أسرار العدالة الإلهية أن يكون هناك ملك في الدنيا؟

وليت الأمر اقتصر على معاوية وجرائمه في حق الإسلام.. فأنت تضع كل تاريخ المسلمين ضمن مقدسات الإسلام.. فتجعل من كل ذلك الجور والاستبداد والظلم والتعسف.. وكل ذلك التخلف والانحطاط قيما إسلامية لا يمكن لشخص أن يكون مسلما في تصورك دون أن يكون مسلما لها، ومسلما بها.. ويستعمل كل الأكاذيب في تبريرها.

دع عنك كل ذلك أيها الرفيق العزيز.. فالدين الإلهي مثل الثوب الأبيض لا يتحمل أدنى وسخ.. ومثل الماء الزلال يدنسه أي شيء يلامسه..

دينك أيها الرفيق العزيز.. لا يمثله إلا كتاب ربك المقدس، ومعانيه الجميلة التي لم تلطخ بغبار القارئين، ودنس الشارحين، وخرافات الأسطوريين، وقساوة الإرهابيين.

ولا يمثله إلا نبيك ﷺ صاحب الخلق العظيم الذي لم تدنسه تلك الروايات التي نشرها البغاة، والتي حولته من رسول إلهي ممتلئ بكل معاني الجمال، إلى رسول بشري، يتناسب مع مزاج الملوك والأمراء والمستبدين.

ولا يمثله بعد ذلك كله إلا الورثة الصادقون المخلصون الذي أوصى بهم، ودعا إلى ركوب سفينتهم، وحذر من مغاب عزلهم، أو التفريط في صحبتهم، أو أخذ الدين عن غيرهم، أو الولاء لأعدائهم، أو النصب لهم.

هذه فقط مصادر الدين المقدس.. وهي من الجمال بحيث تكفي لأن تعرض للعالم إسلاما مملوءا بالقيم الطاهرة النبيلة التي ترغبهم فيه، ولا تنفرهم منه.

وأنت بذلك الإسلام ـ أيها الرفيق العزيز ـ لن تخاف من أي إشكال يطرح عليك، وفي أي مناظرة، فإن حدثوك عن التاريخ وجرائمه ذكرت لهم أن الدين لا علاقة له بالتاريخ.. وأن الإسلام أعظم من أن يمثله التاريخ.. وأنك مثلهم تنكر على ذلك التاريخ، وتسميه تاريخ المسلمين، لا تاريخ الإسلام.. مثله مثل تاريخ المسيحيين واليهود وغيرهم، والذين يقرون أنه لا يمثل دينهم.. فالدين تمثله مصادره المقدسة لا التاريخ ولا الرجال ولا كل الأهواء.

نعم أيها الرفيق العزيز.. هذا هو الدين.. ولا تخف بما يخوفك به قومك من عذاب الله، فالله لا يعذب إلا من أضاف في دينه ما ليس منه، والله طلب منك أن تفهم الدين من خلال كتابه، لا من خلال ذلك التراث الذي اختلط فيه المقدس بالمدنس، والدين بالأهواء.

فكف عنك أيها الرفيق العزيز الدفاع عن كل أولئك الذين قضيت عمرك تدافع عنهم، وأخلص دينك لله، وحطم كل الأصنام، واخرج من سجنك لترى جمال الكون وجمال خالقك وجمال دينك وجمال الحقائق التي دنستها الأهواء.. ولا يمكن أن تسترد جمالها إلا بعد إزالتها، ورفعها وتطهير الدين منها.

لا تتثاقل إلى الأرض

أيها الرفيـق العزيـز.. لا تتثاقـل إلى الأرض، فمـا هي إلا كوكب كالكواكب لا يختلـف عن الزهـرة، ولا عن عطـارد، ولا عن المشـتري.. هي فقـط خُلقت لتتناسـب معـك، وتتناسـب معها، لكنـك لم تخلـق لهـا.. فـأنت ابن السـماء، نـزلت منهـا لتعود إليها، ولم تنزل إليها لتدفن فيها.

نزلت إليها لتمتلئ بالمعارف والمكـارم، ولم تـنزل إليهـا لتملأ قلبك بحب الذهب والفضة والجواهر الكريمة.. فمـا هي إلا حجـارة من حجـارة الأرض، وتـراب من ترابهـا.. ولا يمكن لأحد يملأ قلبه وروحه وسره وجيوبه بتلك الحجـارة أن يسـمو أبدا.. فالأرض لا تريد أن يرتفع أي شـيء منهـا إلى السـماء.. فلذلك لك الخيار بين أن تملأ جيوبك ذهبا، أو تملأ قلبك قيما.

أنت بالخيـار على هـذه الأرض الـتي نـزلت إليهـا بين أن تسكن فيها، وتسكن إليها، وتسلم لها كـل مـا عنـدك، وتعيش لأجلها، لتضمك في الأخير كما تضم الـتراب.. وبين أن تـترفع عنها، ولا تتثاقل إليها، وتكتفي منهـا ببلغتـك الـتي تكفيـك لأن تعيش، وبـزادك الـذي يكفيـك لتكمـل رحلتـك، وببيتـك الـذي يأويك طيلة سفرك.. ولا تزيـد على حاجاتـك منهـا مـا يشـغل قلبك عن رحلته، أو روحك عن سموها، أو حقيقتك عن ترقيها في المراتب التي أتيح لها أن تترقى فيها.

ألا ترى أولئك الذين بنـوا مـا لا يسـكنون، وجمعـوا مـا لا يــأكلون، وملأوا حيــاتهم بالزخــارف الكاذبــة.. كيــف كــانت نهايتهم؟

لقد قص القرآن الكريم عليك قصة قارون.. ذلـك الـذي اختصر الحياة في تلك الكنوز التي جمعها، والزينة الـتي كـان يخرج بها كل حين.. لقد جعله كل ذلك يتثاقل إلى الأرض إلى الدرجة التي لم تطق حمله، فخسفت به.. ولم تكن لتخســف به لو أنه التفت إلى السماء، وتسامى إلى جمالها، وترفع عن

كل ذلك الحطام الذي استهلك وقته ولطائفه، وحول قلبه قاسيا كالحجارة، وحول معدنه إلى تراب لا يختلف عن تراب الأرض.

هل علمت سر ما حصل له؟.. إنه ذلك التكالب على الدنيا، والركون الشديد إليها، والذي لم يستطع أن يتخلص منه أبدا.. ذلك أن الدنيا تأسر كل من تعلق بها، والأرض تقيد كل من وثق فيها وركن إليها.

لقد ذكر الله تعالى ذلك، ونهى عنه، فقال مخاطبا أولئك الذين غفلوا عن الجوهرة السماوية المقدسة التي تنزلت إليهم من عيون الرحمة الإلهية، فجذبتهم حجارة الأرض وترابها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)﴾ (التوبة)

وقال مخاطبا أولئك الذين سمعوا أصوات خشخشة الذهب ورنين الدراهم، فغفلوا عن تلك الأصوات المقدسة التي تنزلت عليهم من السماء: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [الجمعة: 9]

وقال مخاطبا أولئك الذين فتنوا بالمتاع المزيف عن المتاع الحقيقي: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 64]

أيها الرفيق العزيز.. لا تحسب أني بهذا أدعوك لأن تترك حظوظك.. فحظوظك منك، وأنت منها، ولكني أريد أن تترفع بحظوظك، وترفع همتك، حتى لا تبيع الجواهر بالحجارة، وحتى لا تقدم في ذلك اليوم الذي يتقاسم فيه السابقون الغنائم، وأنت خاوي الوفاض، ليس معك شيء.

ألا تعلم ما آل إليه حال لبنى وبثينة وعزة وكل أولئك اللاتي تغنى بهن الشعراء، وجنت في سبيلهن العقول.. إنهن

الآن لسن سوى جماجم مختلطة بحجارة الأرض، أما ذلك البهاء، فهو مجرد طلاء قد زال عنهن، مثلما زالت كل ألوان الطلاء.. فأخبرني هل تستحق تلك الجماجم كل ذلك العناء؟

فلو أن قيسا وكثيرا وجميلا.. التفتوا إلى جمال السماء الذي لا يذبل، والتفتوا لتلك الجواهر المقدسة التي أعارتها السماء إلى الأرض، لما تثاقلوا إليها، ولأنشدوا لها أشعارا جميلة لا يمكن أن تضاهيها تلك الأشعار التي أنشدوها في تراب الأرض الذي زين لهم فاختصروا الحياة فيه.

أنا لا أدعوك أيها الرفيق العزيز بأن تترك الأرض، فجسدك من ترابها.. ولابد أن تعيش فيها.. لكني أذكرك بأن روحك من السماء.. وكما أعطيت لجسدك حقه.. فأعط لروحك حقها، فهي تتعذب، لأنك غفلت عنها، وانشغلت بطينتك، والملائكة لم تسجد لطينك، وإنما سجدت لروحك.

لا تبحث عن الأضواء

أيها الرفيق العزيز.. لا تبحث عن الأضواء، فإن فيها أشعة مسمومة، تقتل كل حقائق الجمال في روحك، وتجعلك عبدا لمن تتصور أنك سيدهم.. وأنك تجلس على عروش قلوبهم، بينما أنت لست سوى خادم ذليل لأهوائهم.

أنت تتصور أنك تعلو عندما يتحدثون عنك، ويشيرون إليك بالبنان، وينتشرون ذكرك في مجالسهم وصحفهم، بينما الحقيقة أنك ـ بطلبك ذلك، وحبك له، وحرصك عليه ـ تسقط في أتون الاستعلاء الذي أشار إليه قوله ﷺ: (بحسب المرء من الشر إلا من عصمه الله من السوء أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه، إن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم)[1]

أترى هذه الإشارة الصريحة منه ﷺ إلى أن الناس لا يرون منا إلا صورنا، وما ظهر منا، أما حقائقنا، فخفية عليهم.. لذلك لا يصح أن نركن إليهم، ولا إلى ثنائهم، ولا إلى أضوائهم، ولا أن نبحث عن ذلك، بل علينا أن نستعيذ بالله من كل ذلك، حتى لا تأسرنا تلك الأصابع التي تشير إلينا؛ فنصبح عبيدا لأوامرها ورغباتها، حتى لا ترتد علينا، أو حتى لا نفقدها.

لذلك أخبرنا ﷺ أن الكمال ليس في أن نكون تحت الأضواء، ولا أن يشار إلينا بالبنان، ولا أن نُعرف بين الخلق.. وإنما الكمال في أن نعرف بين أهل السماء، لأنا جئنا من السماء، والسعيد من عاد إليها من غير أن يتلطخ بمستنقعات الأرض، يقول رسول الله ﷺ: (رب أشعث أغبر ذي طمرين لا

---

[1] () رواه الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، مجمع الزوائد ج 10 ص 296..

يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره)[1]

ويقول حاكيا عن ربه عز وجل: (إن أغبط أوليائي عبد مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة، أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر والعلانية، وكان غامضا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وصبر على ذلك)، ثم نقر رسول الله ﷺ بيده، وقال: (عجلت منيته، وقل تراثه، وقلت بواكيه)[2]

وصور ﷺ في حديث آخر هذا الجندي المجهول الصادق، وقيمته عند أهل الأرض، وقيمته عند أهل السماء، فقال: (إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لقولهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره، لو قُسم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم)[3].

و قال يصفهم: (إن من أمتي من لو أتى أحدكم يسأله دينارا لم يعطه إياه، ولو سأله درهما لم يعطه إياه، ولو سأله فلسا لم يعطه إياه، ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها إياه، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها، وما منعها إياه إلا لهوانها عليه، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره)[4]

وقيمة هؤلاء ــ أيها الرفيق العزيز ــ ليس فقط في خفائهم، أو جهل الناس بهم، أو في صدقهم، وإنما في نجاتهم من الفتن؛ فالفتن لا يقع فيها إلا أولئك الذين يحبون

---

[1] رواه مسلم ج 8 ص 36 و154.

[2] رواه ابن ماجه رقم 4117. والكليني في الكافي ج 2 ص 141 رقم 6 باختلاف فيه.

[3] رواه الترمذي (3854)

[4] رواه الطبراني في الأوسط، مجمع الزوائد ج 10 ص 264.

الأضواء والشهرة والرئاسة، ويتصارعون عليهـا، ويقعـون في كل أنواع الفتن بسببها.

لقد قال ﷺ مشيرا إلى هذه الهدية الكبيرة الـتي يتلقاهـا الهاربون من الأضواء: (إن اليسير من الرياء شرك، وإن اللـه يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غـابوا لم يفقـدوا وإذا حضـروا لم يعرفـوا، قلـوبهم مصـابيح الهـدى، ينجـون من كـل غـبراء مظلمة)[1]

وأشـار ﷺ إلى ذلـك الحنظـل المملـوء بالنفـاق، والـذي ينبت في صدور عاشقي السمعة والجاه والشهرة، فقال: (ما ذئبـان ضـاريان أرسـلا في زريبـة غنم بـأكثر فسـادا من حب الجاه والمال والشرف في دين الرجل المسلم)[2]

وهكذا تحدث كـل ورثـة النبـوة عن هـذا السـم الزعـاف القاتل الذي يجعل من الإنسان عبدا لهواه، وهوى الخلق، فهو لا يتحرك إلا لإرضائهم، وجلب انتباههم، فقد قال الإمام علي: (تبـــذل ولا تشـــهر، ووار شخصـــك لا تـــذكر، وتعلّم فاعمـل،واسـكت تسـلم، تسـرّ الأبـرار، وتغيـظ الفجـار، ولا عليك.إذا عرّفك الله دينه أن لا تعرف الناس ولا يعرفونك)[3]

وقال بعده حفيده وتلميذه الإمام الصادق: (إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون، فو الله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك)[4]، وقال: (من أراد الرئاسة هلك)[5]

وقـال لبعض أصـحابه، وقـد رآه يمـارس مـا يكسـب بـه

1() رواه الطبراني و الحاكم و اللفظ لـه و قـال: صـحيح الاسـناد، ابن ماجـه رقم 3989.

2() رواه الكليني في الكافي ج 2 ص 297.

3() بحار الأنوار (2/ 37)

4() الكافي، ج 2 ص 297.

الجاه عند الخلـق: (ويحـك.. لا تطلبن الرئاسـة، ولا تكن ذئبـا، ولا تأكل بنا الناس فيفقرك الله، ولا تقل فينا مـا لا نقـول في أنفسنا، فإنك موقـوف ومسـئول لا محالـة، فـإن كنت صـادقا صدقناك، وإن كنت كاذبا كذبناك)[1].

وقـــال مخاطبـــا بعض أنصـــاره محـــذرا لهم من طلب السـمعة والجـاه والرئاسـة: (أ تـراني لا أعـرف خيـاركم من شراركم؟ بلى والله وإن شـراركم من أحب أن يوطـأ عقبـه، إنه لا بد من كذاب أو عاجز الرأي)

وهكذا أجمع جميع الأولياء والعـارفين والصـالحين الـذين حـذروا كـل مريـديهم من أن يكـون مطلـوبهم المكانـة بين الخلق؛ فالمريـد الصـادق لا يريـد إلا اللـه، ولا يعيش إلا للـه.. وقد قال ابن مسعود الصـحابي الجليـل: (كونـوا ينـابيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس الـبيوت، سـرج الليـل، جـدد القلـوب، خلقان الثياب، تعرفـون في أهـل السـماء وتخفـون في أهـل الأرض)، وقال آخر: (ما صدق الله من أحب الشـهرة)، وقـال آخر: (والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يُشعر بمكانه)

وبين آخـــر أثـــر الشـــهرة في جلب الفتن إلى القلـــوب، فقال: (إن خفق النعال حول الرجال قلمـا تلبث عليـه قلـوب الحمقى)

وقال آخر يوصي مريدا لـه جـاء ليتـأدب على يديـه: (إن اسـتطعت أن تعـرف ولا تعـرف وتمشـي ولا يمشـي إليـك وتسأل ولا تسأل فافعل)

وأشار آخر في بعض مواعظه إلى قيمـة أولئـك الأتقيـاء الأخفيـاء الـذين أثـنى عليهم رسـول اللـه ﷺ، فقـال مصـورا لمشهد من مشاهد صدقهم: (قحـط أهـل المدينـة وكـان بهـا رجل صالح لا يؤبه له، لازم لمسجد رسـول اللـه ﷺ فبينـا هم

5() الكافي، ج 2 ص 298.

1() الكافي، ج 2 ص 298.

في دعـائهم إذ جـاءهم رجـل عليـه طمـران خلقـان، فصـلى ركعتين أوجـز فيهمـا ثم بسـط يديـه فقـال: يـا رب أقسـمت عليك إلا أمطـرت علينـا السـاعة؛ فلم يـرد يديـه، ولم يقطـع دعاءه حتى تغشت السماء بالغيم، وأمطروا حـتى صـاح أهـل المدينة من خوف الغرق، فقال: يا رب إن كنت تعلم أنهم قد اكتفوا فـارفع عنهم، فسـكن، وتبـع محمـد بن سـويد صـاحب المطر حتى عرف منزله، ثم بكر عليه فخرج إليه فقــال: إني أتيتك في حاجة، فقال: ما هي؟ قـال: تخصـني بـدعوة، قـال: سبحان الله أنت أنت، وتسألني أن أخصك بدعوة، ثم قال: ما الذي بلغك مـا رأيت قـال: أطعت اللـه فيمـا أمـرني، ونهـاني فسألت الله فأعطاني)

هذه أيها ـ الرفيق العزيز ـ كلمـات الأوليـاء والصـالحين، وقبلها كلمات الأئمة الطاهرين، وقبلها كلمات رسول اللـه ﷺ أنصح الخلق أجمعين.. وفوق هذه جميعا يقول الله تعـالى لي ولك، ولكل الخلق: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُـوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَـا وَهُمْ فِيهَـا لَا يُبْخَسُـونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَـا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [هود: 15، 16]

فلا تحسب أن الزينة في المال وحده، بل أخطـر الزينـة حب الجاه والشهرة والذكر بين الخلـق.. فهي سـم زعـاف لا يختلف عن ذلك السم الذي يجلبه حب المال.

وخطره ليس في نفسه فقط، وإنما في ذلـك الاسـتعلاء الـذي يملأ بـه القلـوب؛ فتصـبح شـامخة بأنفهـا متكـبرة على التراب الذي خلقت منه، وقد قال تعالى: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِـرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُـوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَـادًا وَالْعَاقِبَـةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83]

أقول لك ـ أيها الرفيـق العزيـز ــ هـذه النصـيحة، وأعلم أنك ستجيبني بأن الله تعالى قال عن رسوله ﷺ: {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} [الشرح: 4]، وقال عن الأنبيـاء والصـالحين: {وَوَهَبْنَـا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [مريم: 50]

بل ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام بأن يكسبه الله جاها وسمعة، فقال: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ} [الشعراء: 84]

وأنا لا أخالفك في هذا، ولا أجادلك فيه.. ومعاذ الله أن أرد كلام ربي.. ولكني تمنيت لو أنك نظرت إلى أولئك الذين ذكر الله تعالى عنهم ذلك.. فهم ليسوا مثلي ولا مثلك ولا مثل سائر الناس.. إنهم رسل الله الذين لا يمكن أن يؤدوا وظائفهم دون أن يعرفهم الناس..

لذلك هم لم يطلبوا الجاه لأنفسهم، وإنما الجاه هو الذي طلبهم.. فهم قد فنوا عن أنفسهم، فصاروا عبيدا لله، لا عبيدا لأهوائهم، وإذا وصلت إلى تلك المرتبة، فسلم أمرك لله، وردد ما قال ذلك الصالح: (من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، وعبد اللّه سواء عليه أظهره الله أم أخفاه)

أما في المرحلة التي أنا وأنت فيها؛ فعلينا أن نردد مع ذلك الحكيم قوله: (ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه)

لا تضيع حظك من ربك

أيهــا الرفيــق العزيــز.. أنت تــذكر كــل حين، وفي كــل المجالس بأن من منن الله عليك أنك لم تقع في الكبـائر، ولا في أكثر الصغائر، وأنك لـو وقعت فيهـا أسـرعت إلى التوبـة، ومحوت كل ذنوبـك.. وأنـك لـذلك مـوقن بفضـل اللـه عليـك بالنجاة من النار، وبرحمة الله عليك بدخولك إلى الجنة.

وأنا لا أشكك فيما ذكرت، ولا أريد أن أسـمي مـا تفعلـه عجبا أو غرورا.. فقد لا تكون معجبا ولا مغـرورا.. وقـد يكـون ما أنت فيه ذلك المقام الرفيع الـذي يسـميه العـارفون باللـه رجاء.

ولكني مع ذلك لا أريدك أن تقف عند ذلك الرجاء، حــتى لا يكون حجابا بينـك وبين الـترقي إلى اللـه.. فـأنت لم تـنزل إلى هـذه الأرض لتقـف وتتوقـف، وإنمـا نـزلت إليهـا لتصـعد وتتحــرك كــل حين.. فلا كمــال إلا في الحركــة، ولا ســمو إلا بالصعود.

وأجمــل الصــعود وأســماه ليس أن تصــعد للجنــة، ولا للفردوس الأعلى.. ولكن أن تصـعد بروحـك وجميـع لطائفـك إلى الله الذي هـو أقـرب إليـك منـك.. فلا يكفي لكي تتقـرب منه أن تكف عن الذنوب.. فهناك مـا هـو أخطـر منهـا.. وهـو الإعراض والغفلة..

وقد سمع بعض الصـالحين، بعـد أن ردد مـا كنت تـردده من فضل الله عليك بالعصمة من المعاصي، قائلا يقول له:

كل شيء منك ... ر سوى

قد وهبنا لك ... ت فهب لنا ما

ألا تعلم ـ أيها الرفيق العزيز ـ مـا تحملـه هـذه الكلمـات من معـان.. تصـور لـو أنـك دعـوت قومـا تحبهم إلى بيتـك، ووفرت لهم كل أسباب الراحــة والسـعادة، وأزلت عنهم كــل

أسباب الهم والغم.. ثم بعد ذلك كله لم يعـيروك أي اهتمـام، ولم يبالوا بك، بل اكتفوا بما وفرت لهم.. ولم يكلفوا أنفسـك بالحديث معك، أو السؤال عنك.. وحتى عندما شـكروك كـان نظرهم إلى ما وفرت لهم، أكثر من نظـرهم إليـك.. وبعـد أن خرجوا من عندك، وبأيديهم أصناف الهدايا، راحوا يثنـون على أنفسهم أنهم لم يلقوا القـاذورات في بيتـك، ولم يصـدروا أي ضجيج يزعج الجيران.. وأنهم لذلك يستحقون منك أن تحسن إليهم كل حين.

هكذا أنت أيها الرفيق العزيز مع ربك، وهكذا أنا، وهكذا أكثر الناس.. فنحن نتناول نعم ربنـا، ونتقبـل هـداياه، ثم نمن بعد ذلك عليه بأننا لم نعصه.. مع أن أعظم معصـية هي ذلـك الإعـراض الـذي يجعلنـا نقبـل على النعمـة، وننسـى المنعم، ونفرح بالهدية، وننسى الفرح بالمهدي.

ولـو أنـا أشـحنا ببصـرنا قليلا عن جمـال الهـدايا الإلهيـة، ورحنا نتطلع بقلوبنا إلى جمال المهدي لغفلنا عن الهدايا وعن أنفسنا وعن الكون جميعا.. فأين تقع تلك الهـدايا مـع عظمـة الله، وأين يقع ذلك النعيم مع جمال الله؟

ولذلك كانت الخسارة العظمى ليسـت خسـارتنا للجنـة، وإنما خسـارتنا للـه.. فاللـه بيـده الجنـة والنـار، وبيـده الـدنيا والآخرة.. ومن وصـل إلى اللـه وصـل إلى كـل شـيء.. ومن حُرم من الله حرم من كل شيء..

وقد سـأل بعضـهم معروفـا عن كـثرة مجاهداتـه في اللـه، وقال له: (أخبرني أي شـيء هاجـك إلى العبـادة والانقطـاع عن الخلق؟) فسكت، فقال: ذكر الموت، فقال: وأي شيء المـوت؟ فقال: ذكر القبر والبرزخ، فقال: وأي شيء القبر؟ فقال: خـوف النار ورجاء الجنة، فقال: (وأي شيء هذا؟ إن ملكاً هذا كله بـيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بـينك وبـينه معرفة كفـاك جميع هذا)

ولذلك كانت الغفلة عن الله والأعراض عنه وعـدم الجـد

في السـير إليـه هي المعصـية العظمى الـتي لا تعادلهـا أي معصـية، ذلـك أننـا لم نـنزل إلى الأرض لنتشـوف إلى النعيم الذي وفر لنا، وإنما نزلنا إليها لنعرفه ونحبه وننشغل بـه عمن سواه.. ذلك أن كل ما سواه هباء منثور لا قيمة له.

لقد قال بعض الصالحين متأسفا علي وعليك وعلى كـل الغافلين تفريطهم في جنب الله: (مساكين أهل الدنيا خرجوا من الـدنيا ولم يـذوقوا طيب نعيمهـا) فقيـل لـه: (ومـا هـو؟) فيقول:(محبة الله والأنس به والشوق إلى لقائه)

وقد صدق في ذلك، فبمعرفـة اللـه ومحبتـه تجتمـع كـل أنواع النعم، ذلك أن الله هو مصدرها ومفيضها ومهديها، ومن وصل إليه وصل إلى مفاتيح كل النعم، واجتمعت في قلبه كل اللذات.

لقـد صـرح بهـذا كـل من عاشـر النعم وعاشـرته، لكنـه عندما سار إلى الله، وشرب كأسا من شراب حبه راح يصيح:

كانت لقلبي أهواءٌ

فصار يحسدني من   وصرتُ مولى الورى مُذْ

ما لامني فيك أحبابي   إلّا لغَفلتهم عن عظم بلوائي

تركتُ للناس دنياهم   شغلاً بحبك يا ديني ودنيائي

أشعلتَ في كبدي   بين الضلوع وأخرى بين

وهكـذا ذكـر الغـزالي عن نفسـه عنـدما سـئل عن سـر عزلته:

تركت هوى ليلى   وعدت إلى مصحوب

ونادتني الأشواق مهلا   منازل من تهوى

وهكذا ذكر ذلك العاشق الذي ذاق بعض طعم حب الله، فانشغل به عن كل شيء:

تَملَّكتموا عقلي   وَرُوحِي وأحشائِي

وتيّهتُمونِي فِي بديع وَلَم أدر فِي مَجرَ

وهكذا ذكر ذلك الفيلسوف الشهيد الذي عرف أن كل آلام البشر ليس لها إلا مصدر واحد، وهو الإعراض عن الله والغفلة عنه، فقال:

أبدا تحنّ اليكم ووصالكم ريحانها

وقلوب أهل ودادكم وإلّى لذيذ لقائكم

وهكذا قال الآخر في وصف بعض آثار ترياق محبة الله، وعلاجه لكل الآلام:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على أقامَتْ بهِ الأفْراحُ،

ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ لعادَتْ إليهِ الرُّوحُ،

ولو طرحوا في فئِ حائطِ عليلاً وقدْ أشفَى لفارقهُ

ولوْ قرَّبوا منْ حلها مقعداً وتنطقُ منْ ذكري

ولوْ عبقتْ في الشَّرقِ وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ

ولوْ خُضبتْ منْ كأسها لما ضلَّ في ليلٍ وفي

ولوْ جليتْ سرَّاً على أكمهٍ بصيراً ومنْ راو وقها

ولو أنّ ركْباً يَمّمَوا تُرْبَ وفي الرَّكْبِ ملسوعٌ

ولوْ رسمَ الرَّقي حروفَ جبينِ مصابٍ جنَّ أبرأهُ

وفوقَ لِواءِ الجيشِ لو لأسكرَ منْ تحتَ اللِّوا

تُهَذّبُ أخلاقَ النّدامى، بها لطريقِ العزمِ منْ لالهُ

ويُكْرِمُ مَنْ لم يَعرِفِ ويَحلُمُ، عِندَ الغيظِ، مَن لا

ولو نالَ فَدْمُ القَوْمِ لَثْمَ لأكسَبَهُ مَعنى شَمائِلِها

هذه بعض آثار التواصل مع الله.. لذلك دع عنك أيها الرفيق العزيز كل تلك الدعاوى، وسر مع أصحاب الهمم العالية الذين لم يروا في الدارين غيره، ولم يلتفتوا في الكونين لسواه، فاخلع نعليك، وسترى كل شيء أمامك، وبين

يـديك، فعنـد اللـه تجتمـع كـل الحظـوظ، وترتفـع كـل الآلام، وتتحقق كل الأماني.

لا تزدر نعم الله عليك

أيها الرفيق العزيز.. سمعتك البارحة تمـزح مـع صـاحب لك، وتذكر له بسـخرية ممزوجـة بمـرارة ضـيق بيتـك، وقـدم سيارتك، وأنك لم تشتر ثيابا جديدة منذ سنتين، وأن مرتبك لا يزال يراوح مكانه منذ عشر سنوات، وأن شاشتك التلفزيونية من ذلك النوع القديم الذي عفا عليه الزمن، وهاتفـك النقـال لا يكاد يتيح لك استعماله إلا بعد صبرك الطويل..

وهكذا كنت تجمع بين الشـكوى والمـزاح، وتـذكر لـه أن من زملائك القدامى من لم يكتف بشـقة واحـدة، بـل أضـاف إليها شققا وقصورا، وأن منهم من يملـك سـيارتين لا سـيارة واحدة، وأن منهم من له المحلات الكثيرة التي تدر عليـه كـل حين كل أصناف الرزق.

أنا أعلم أنك كنت تمزح وتضـحك، ولكـني أعلم أيضـا أن باطنك الذي لا تشعر به كان يشكو ويبكي، بل كان يصـيح في ربه الذي أنزل عليه كل أصناف النعم، بكل لغات الجحود.

وأنا لا أدعوك لأن تنطـق أمـامي أو أمـام ذلـك الصـديق الذي وصفت له حالك بكل ما يدل على حمدك لله، وشـكرك لـه.. فنحن لا نساوي شيئا.. ولن ننفعـك، ولن نضـرك.. واللـه تعالى كذلك لم يرد منك أن تردد كلمـات جوفـاء تمدحـه بهـا، من غير أن تكون لتلك الكلمات ما يصدقها من قلبك وعقلك.

ولذلك أدعـوك بـدل ذلـك أن تجلس مـع نفسـك.. لـترى حقيقة ما ذكرت.. وهل هو حق أو باطل.. وهل أنت فقير من النعم، أم أنك فقير من النظر إليها.

نعم مرتبك ـ كما تذكر ـ ضعيف.. ولا يكاد يكفيك.. ولكن هناك من جيرانك وأهل بلدك، من يحلم بتلـك الوظيفـة الـتي تتولاها، وذلك المرتبت الذي تتقاضاه، ولكنه لا يجد له سبيلا.. وأنت لم تكتف بعـدم النظـر إلى مـا أنعم اللـه عليـك بـه، ولا بتركك لحمد الله عليه.. وإنما رحت تشكو منـه، وتـزدر نعمـة

الله عليك به.

وهكـذا لـو نظـرت إلى سـقف بيتـك وغرفـه.. وقارنتهـا بعشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الـذين لا يجـدون مـأوى، ويحلمـون بنصـف الـبيت الـذي تسـكن فيـه أو ربعـه أو ربمـا عشره.. حتى لا يطاردهم الشارع، ولا يتربص بهم الصعاليك.

وهكذا لو نظرت إلى ذلك الطعام الذي تأكله، والشراب الـذي تشـربه، والأمن الـذي تعيشـه.. ورحت تقارنـه بحيـاة المعدمين والفقراء الذين قد لا يجـدون مـا يـأكلون.. لعـرفت أنك من المعدودين الذين صبت عليهم أصناف النعم.

بل إنك لو تأملت حياتك، وما فيها من ألوان الرخاء الذي لا تراه، ولا تشعر به، لوجدت أنك أفضل من قيصـر وكسـرى وكل ملوك الأرض، فتلفزيونك الـذي تحتقـره، وهاتفـك الـذي تشكو من بطئـه لم يكن لـديهم مثلـه.. وكـانوا يحتـاجون إلى الكثير من الخدم والعبيـد لأجـل مصـالح بسـيطة تأتيـك وأنت غافل عنها لا تراها.

وهكذا لو رحت تنظر إلى نعمة البصر الـتي حـرم منهـا ا لمكفوفون، وإلى نعمة السمع الـتي حـرم منهـا الصـم، وإلى نعمة الكلام التي حرم منها البكم، وإلى نعم السير التي حرم منها المقعدون.. وإلى نعمة العقل التي حرم منها المجـانين.. لوجدت أن الله أفاض عليك بحارا من النعم، أنت غارق فيها، لكنك تتوهم أنك خال منها.

أعلم جيدا ما تقوله لك نفسك أيها الرفيق العزيز، فأنت لم تُؤت من جهة قلة النعم التي أنعم الله بهـا عليـك، ولكنـك أُتيت من مقارنة حالك بحال غيرك.. وهذا مـا جعلـك تقـع في تلك الأخطاء الكثيرة.

فالله تعـالى ابتلانـا بـاختلاف الـدرجات في الـدنيا، حـتى نسارع في الخيرات التي تجعلنا نفوز بالدرجات في الأخــرى، وقد قال مبينا ذلك: { انْظُـرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنَا بَعْضَـهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 21]

ولذلك فإن الدنيا دار للاختبار، وليست دارا للاستقرار، والعاقل هو الذي يبحث فيها عما يدوم، وليس ذلك الذي يفني عمره وجهده فيما يفنى، وقد قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: 46]

ولو كان للدنيا منزلة عند الله لما عاش رسول الله ﷺ، وهو هدية الله العظمى إلى عباده، وأشرف خلق الله تلك المعيشة التي لو قارنتها بمعيشتك، لعلمت مدى ازدرائك لنعم الله.. ولكنه مع ذلك كله.. كان ممتلئا بحمد الله تعالى، يشكره في كل محل، حتى في تلك المحال التي يجتمع فيها الجوع والبرد والخوف وكل الآلام..

لقد كان رسول الله ﷺ بعد ذلك الطعام القليل الذي لا يمكن لفمك ولا لمعدتك أن تستسيغه يردد بكل لطائفه قائلا: (الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع، ولا مكافأ ولا مكفور، ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعم من الطعام، وسقى من الشراب، وكسى من العري، وهدى من الضلالة، وبصر من العمى، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله رب العالمين)[1]

هذه الكلمات ـ أيها الرفيق العزيز ـ يقولها رسول الله ﷺ بعد جوع طويل، قد يستمر أياما يضطر فيها لأن يعصب الحجر على بطنه، ثم يكون أكله بعدها حبات تمرة قليلة مع الماء، أو كسرة شعير يابسة..

هذا ما ذكره كل الصحابة الذين عاشوا معه ﷺ ورأوا معيشته وزهده وعفافه عن كل تلك الزخارف التي يطلبها الغافلون.. لقد قال ابن عباس يصف حاله: (كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان عامة

---

[1] () رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (10132) وابن حبان في صحيحه برقم (1352)

خبزهم خبز الشعير)[1]

وقال أبـو الـدرداء: (لم يكن ينخـل لرسـول اللـه ﷺ دقيـق قط)[2]

وقال عبـد الـرحمن بن عـوف: (خـرج رسـول اللـه ﷺ من الدنيا، ولم يشبع هو، ولا أهله من خبز الشعير)[3]، وقال: (مـات رسول الله ﷺ ولم يشبع من خبز الشعير، فما أرنا أخرنا لما هـو خير لنا)[4]

وقال سـهل بن سـعد: (مـا شـبع رسـول اللـه ﷺ في يـوم شبعتين حتى فارق الدنيا)[5]، وسئل: أكانت المناخـل على عهـد رسول الله ﷺ؟ فقال: ما رأيت منخلا في ذلك الزمان، وما أكـل النبي ﷺ الشعير منخولا حتى فارق الدنيا، قلت: كيف تصـنعون؟ قال: (كنا نطحنها، ثم ننفخ قشرها، فيطير ما طار، ويتمسـك مـا استمسك) [6]

وقال عمران بن حصين: (مـا شـبع آل محمـد ﷺ من خـبز مأدوم حتى مضى لسبيله)[7]، وقال: ما شبع رسول الله ﷺ من

1() رواه أحمد، وابن سعد والترمذي وصححه.

2() رواه الطبراني.

3() رواه البزار بسند جيد.

4() رواه عبد بن حميد.

5() رواه الطبراني.

6() رواه ابن سعد والدارقطني في الافراد، وصححه.

7() رواه أحمد.

غداء وعشاء حتى لقي ربه (1).

وقال أنس بن مالك: ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفا مرققا بعينه، حتى لحق بربه، ولا شاة سميطا قط (2).

وقال ابن عمر: دخلت مع رسول الله ﷺ حائطا من حيطان المدينة، فجعل يأكل بشرا أخضر، فقال: (كل يا ابن عمر)، فقلت ما أشتهيه يا رسول الله، قال: (ما تشتهيه؟ إنه لأول طعام أكله رسول الله ﷺ منذ أربعة أيام)(3)

وقال عتبة بن غزوان: (لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما طعامنا إلا ورق الحبلة حتى تقرحت أشداقنا) (4)

وقالت زوجه عائشة: ما شبع آل محمد ثلاثة أيام من خبز البر حتى ذاق رسول الله ﷺ الموت، وما زالت الدنيا علينا عسرة كدرة حتى مات رسول الله ﷺ، فلما مات أنصبت علينا صبا(5).

وقالت: ربما قال النبي ﷺ: (يا عائشة هلمي إلى غذاءك المبارك، وربما لم يكن إلا التمرتين)(6)

وقالت: ما اجتمع في بطن رسول الله ﷺ طعامان قط، إن أكل لحما لم يزد عليه، وإن أكل تمرا لم يزد عليه، وإن أكل

---

(1) رواه الطبراني.

(2) رواه ابن سعد.

(3) رواه الطبراني.

(4) رواه أحمد، ومسلم، وابن ماجه.

(5) رواه ابن عساكر.

(6) رواه ابن عدي.

خبزا لم يزد عليه (1).

وقالت: لو أردت أن أخبركم بكل شبعة شبعها رسول الله ﷺ حتى مات، لفعلت(2).

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة يوما، فدعت بطعام فقالت لي: كل فلقل ما أشبع من طعام، فأشاء أن أبكي أن بكيت، قال: قلت: لم يا أم المؤمنين؟ قالت: أذكر الحال التي فارقها رسول الله ﷺ، ما شبع رسول الله ﷺ في يوم مرتين من خبز شعير حتى لحق بالله (3).

ومع كل هذا كان رسول الله ﷺ محلا لإيذاء كل المعتدين والساخرين والمنافقين ومرضى القلوب والناكثين للعهود.. ومع ذلك كله كان يردد كل حين كل آيات الثناء على الله، حتى يشعر القارئ لها أنه لم يخرج من القصور، ولم يلقه أحد بأذى.

هذه هي السنة العظمى أيها الرفيق العزيز.. فإن أردت أن تطبقها، فاحمد الله، وعش بقدر ما آتاك الله من فضله، ولا تزد نعمة الله عليك، ولا تقارن حياتك بأولئك الذين تتصور أنهم نالوا الدنيا.. بل قارنها بأولئك الذين فازوا بالآخرة، وبُشروا وهم على هذه الأرض بالجنة؛ فأنت لم تخلق للدنيا، ولا للسكن فيها، وإنما خلقت للآخرة، فأثبت أهليتك لها، بحمدك لربك، ورضاك بما قسم لك.

وقد قال رسول الله ﷺ مخاطبا لك ولي ولكل الجاحدين نعم الله: ﷺ: (من أصبح منكم آمنا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)(4)

---

(1) رواه ابن سعد.

(2) رواه ابن عساكر.

(3) رواه ابن عساكر.

(4) رواه البخاري في الأدب المفرد (رقم/300) والترمذي في السنن (2346)

لا تسجن عقلك

أيها الرفيق العزيز.. أطلق سراح عقلك، وفك عنه قيوده وأغلاله، فقد طال سجنه، وكاد يبلى، ولا يمكنك أن تعيش من دونه، ولا يمكن أن تظل بتلك العقول التي استعرتها من غيرك، فالله أمرك أن تعرفه وتعبده بعقلك، لا بعقل غيرك.

أنت تعلم من كلفك بسجنه، وصور لك أنه الواقف دونك ودون الحقائق، وأنه قنبلتك الموقوتة التي ستنفجر فيك لترديك..وقد كذب في ذلك، فما العقل إلا وسيلتك إلى الحقائق، ودليلك عليها، وما خلقه الله لك إلا لتسير على سراجه إليها.

أما تلك الأسئلة التي تتوهم أنها أسئلة مشاغبة، فيمكنك أن تعالجها بجلستك الهادئة معه، فهو كالمراهق والصبي، يشاغب لكنه إن وجد حوارا هادئا، وكلاما حكيما يعود إلى وعيه من جديد، لتستمر رحلتك معه في السير إلى الحقائق..

لعلك تعرف أبا حامد الغزالي.. لقد مر بنفس تجربتك، لكنه لم يذهب لأولئك السجانين الذين ذهبت إليهم، فراحوا يقيدون عقلك، وإنما التجأ إلى الله وتضرع إليه ودعاه لأن يهديه للحقائق، وأن يوفقه للسير إليها.. فهداه إليها من غير أن يقيد عقله، بل هداه إليها بعقل جديد أكثر حكمة ونورا.

لقد قال يذكر ذلك: (لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر، وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلا..

وقال : حسن غريب ..

فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات، وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات) (1)

وهكذا راح يستعمل كل وسائل البحث إلى أن هداه الله إلى الحقيقة، وتحول إيمانه من إيمان المقلدين إلى إيمان المجتهدين، ومن إيمان العوام إلى إيمان الخواص، ومن الإيمان الممتلئ بالشك والتردد إلى الإيمان الممتلئ بالذوق والشهود والمعرفة.

ولو أنه حبس عقله، كما حبست عقلك لما اهتدى إلى شيء.. لأن العقل هو المرآة التي تتجلى فيها الحقائق، ومن كسرها أو قيدها، أو رماها في غياهب السجون، فلن يصل إلى شيء.

وهكذا حصل لديكارت الفيلسوف الكبير الذي اهتدى إلى الإيمان في الوقت الذي ضل فيه الكثير من الفلاسفة عنه؛ فهو أيضا حصل له ما حصل للغزالي، لكنه استطاع بفضل إعمال عقله، وعدم سجنه أن يهتدي للإيمان بالله، ولو أنه أعمله أكثر لاهتدى إلى رسول الله ﷺ.. وقد قال يحدث عن نفسه: (ليس بالأمر الجديد ما تبينت من أنني منذ حداثة سني قد تلقيت طائفة من الآراء الباطلة وكنت أحسبها صحيحة، وأن ما بنيته منذ ذلك الحين على مبادئ هذا حالها من الزعزعة والاضطراب، لا يمكن أن يكون إلا شيئاً مشكوكاً فيه جداً.. فحكمت حينئذ بأنه لا بد لي مرة في حياتي من الشروع الجدي في إطلاق نفسي من جميع الآراء التي تلقيتها في اعتقادي من قبل، ولا بد لي من بناء جديد من الأسس إذا كنت أريد أن أقيم في العلوم شيئاً وطيداً

(1) المنقذ من الضلال (ص: 110)

مستقراً[1]

ولهـذا دعت النصـوص المقدسـة إلى إعمـال العقـل، ويمكنك أن تقرأ في القـرآن الكـريم وحـده عشـرات الآيـات التي تـدعوك إلى اسـتعمال عقلـك.. فلا تتـوهم أنهـا تخـاطب المشركين أو المنافقين أو مرضى القلـوب، بـل هي تخاطبنـا جميعا، فلا يمكن لبنيان الدين أن يقوم من دون عقل.

لقـد قـال اللـه تعـالى يصـف الوصـفة الـتي يمكننـا أن نستفيد بسبب استعمالها من القرآن الكريم: {كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: 29]

فهـذه الرسـالة الإلهيـة لا يمكن أن يفهمهـا من حجب عقله، أو قيده، أو منعـه من التـدبر في كلمـات اللـه، ليبصـر الحقـائق من خلال مرآتهـا.. وقـد قـال تعـالى مخـبرا عن استحالة ذلك: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُـوبٍ أَقْفَالُهَـا} [محمد: 24]

ولهذا، فإن آيات اللـه الـتي هي مظـاهر التعـرف عليـه، والاسـتدلال بهـا على حقـائق الوجـود، لا يمكن أن يفهمهـا إلا أولـو الألبـاب أصـحاب العقـول الـذين مرنوهـا ودربوهـا على اكتشاف الحقائق، لا أولئك الذين قيدوها وسجنوها، لقـد قـال اللـه تعـالى يـذكر ذلـك: {إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لَآيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَـذَا بَـاطِلًا سُـبْحَانَكَ فَقِنَـا عَذَابَ النَّارِ } [آل عمران: 190، 191]

ولهذا أخـبر اللـه تعـالى عن الضـياع الـذي يجـده أولئـك الأتباع الذين سجنوا عقولهم، وراحـوا إلى سـاداتهم يتبعـونهم في كـل مـا يذكرونـه لهم من غـير أن يستفسـروا، ولا أن يحققوا، ولا أن يدققوا.. قال تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ

[1] التأملات في الفلسفة الأولى، رينه ديكارت، ص53.

الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَـذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْـبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـالَهُمْ حَسَـرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَـا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنَ النَّارِ } [البقرة: 166، 167]

وأخبر رسول اللـه ﷺ عن ذلـك، وأنـه مصـدر كـل الفتن والبلاء، فقـال: (لا تكونـوا إمّعـة، تقولـون: إن أحسـن النّـاس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسـكم، إن أحسـن النّاس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا)[1]

وحكى لنا حفيده الإمام الصادق حكايـة لا تصـلح إلا لمن توهموا أن عقولهم سـتحجبهم عن الجنـة، وتحـول بينهم وبين فضل الله، فقـد روي أنـه ذكـر لـه فضـل شـخص من النـاس وكثرة عبادته، فلم يهتم كبير اهتمام بذلك، وإنما راح يسـألهم عن عقله، ثم ذكر لهم سـبب ذلـك السـؤال، وأن العقـل هـو مناط الثواب والعقـاب، وبـه يمـيز السـابقون من المتخلفين، فقال: (إن رجلاً من بني إسرائيل كـان يعبـد اللـه في جزيـرة من جزائر البحر، خضراء نضرة، كثيرة الشـجر ظـاهرة المـاء وإن ملكاً من الملائكة مرَّ به فقال يـا رب أرني ثـواب عبـدك هذا)، فأراه الله تعـالى ذلـك، فاسـتقله الملـك، فـأوحى اللـه تعالى إليه: أن اصحبه فأتاه الملك في صوره إنسي فقال له: (من أنت؟) قال: (أنا رجل عابـد بلغـني مكانـك وعبادتـك في هذا المكان فأتيتك لأعبد الله معـك)، فكـان معـه يومـه ذلـك فلما أصبح قـال لـه الملـك: (إن مكانـك لـنزه، ومـا يصـلح إلا للعبادة)، فقال له العابد: إن لمكاننا هذا عيباً)، فقال له: (وما هو؟) قال: (ليس لربنا بهيمة فلو كان له حمار رعيناه في هذا الموضع، فإن هذا الحشـيش يضـيع)، فقـال لـه ذلـك الملـك: (وما لربك حمار؟). فقال: (لو كان له حمار ما كان يضيع مثل هذا الحشيش)، فأوحى الله إلى الملك: (إنما أثيبـه على قـدر عقله)[2]

---

[1] () الترمـذي (2007) ، وقـال: هـذا حـديث حسـن غـريب. وقـال محقـق جـامع الأصول (11/ 698) حديث حسن.

أرأيت أيها الرفيق العزيـز قيمـة العقـل، وقيمـه صـاحبه عند الله، وأنه حتى لو نجـا، فإنـه لن يكـون في ذلـك المحـل الذي يصل إليه أصحاب العقول المنورة بنور الحقـائق، ولهـذا ورد في الحــديث الشــريف قولــه ﷺ: (إذا بلغكم عن رجــل حسن حال فانظروا في حسن عقله، فإنما يُجازى بعقله) (1)

وهكذا كان الورثة لا يكتفون من دين النـاس بظـاهرهم، وإنما يسألون عن عقولهم، وهل هي مقيدة سـجينة، أم حـرة طليقـة، وقـد روي أن الإمـام الصـادق ذكـر لـه رجـل مبتلى بالوضوء والصلاة، فلم يلتفت لذلك، فقيل له: هو رجل عاقل، فقال: (وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟) فقيـل لـه: وكيـف يطيع الشيطان؟ فقال: (سـله هـذا الـذي يأتيـه من أي شـيء هو؟ فإنه يقول لك من عمل الشيطان) (2)

إن لم تكفك ـ أيها الرفيق العزيـز ــ كـل هـذه النصـوص في فضل العقـل، وأنـك لا يمكن أن تصـل لشـيء من دونـه، فاسمع لهذه النصيحة الغالية من رسـول اللـه ﷺ، فقـد قـال: (ما قسم الله للعبـاد شـيئاً أفضـل من العقـل، فنـوم العاقـل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقـل أفضـل من شـخوص الجاهل، ولا بعث الله نبيـاً ولا رسـولاً حـتى يسـتكمل العقـل، ويكون عقله أفضل من جميع عقـول أمتـه ومـا يضـمر النـبي في نفســه أفضــل من اجتهــاد المجتهــدين، ومــا أدى العبــد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابـدين في فضـل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألبـاب، الـذين قـال الله تعالى: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} [البقرة: 269]) (3)

---

(2) الكافي، 1/12.

(1) الكافي، 1/12.

(2) الكافي، 1/13.

(3) الكافي، 1/13.

ولهذا يمكنك أن تميز بين ورثة النبوة وغيرهم بـالموقف من العقل، فمن دعاك إلى العقل، فقد دعـاك إلى دين اللـه، ومن طلب منك أن تقيـد عقلـك، وتسـجنه، فهـو يـدعوك لأن تعبد الله بالدين الذي شرعه بهواه.

وقـد أرسـل الإمـام الرضـا إلى بعض أصـحابه برسـالة طويلة لا يدعوه فيها إلى اتباعه والخضوع لأوامره ـ كما يفعل أصحابك الذين أمروك بسجن عقلك ـ وإنما أمره باتباع العقل وإعمالـه، فمن اتبـع العقـل وأعملـه عـرف أصـحاب الحـق، واتبعهم لا لذواتهم، وإنما لأن العقل هو الذي هداه إليهم.

ومما جاء في تلك الرسالة قوله: (يا هشام ما بعث اللـه أنبيـاءه ورسـله إلى عبـاده إلا ليعقلـوا عن اللـه، فأحسـنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بـأمر اللـه أحسـنهم عقلا، وأكملهم عقلا أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.. يـا هشـام إن للـه على النـاس حجـتين: حجـة ظـاهرة وحجـة باطنـة، فأمـا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول.. يا هشام إن العاقل الذي لا يشـغل الحلال شـكره، ولا يغلب الحرام صبره.. يا هشـام من سـلط ثلاثـاً على ثلاث فكأنما أعـان على هـدم عقلـه؛ من أظلم نـور تفكـره بطـول أمله، ومحى طرائف حكمته بفضول كلامه، وأطفأ نور عبرتـه بشهوات نفسه، فكأنما أعان هواه على هدم عقله، ومن هدم عقله، أفسد عليه دينه ودنياه.. يا هشام كيف يزكـو عنـد اللـه عملك، وأنت قد شـغلت قلبـك عن أمـر ربـك وأطعت هـواك على غلبة عقلك.. يا هشـام الصـبر على الوحـدة علامـة قـوة العقل، فمن عقل عن الله؛ اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيهـا، ورغب فيما عند الله، وكان الله أنسه في الوحشـة، وصـاحبه في الوحدة، وغناه في العيلـة، ومعـزه من غـير عشـيرة.. يـا هشام نصب الحق لطاعة الله، ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقـل يعتقـد، ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العلم بالعقل.. يا هشام قليل العمل من العالم مقبول مضاعف، وكثير العمل من أهل الهوى والجهـل مـردود.. يـا هشـام إن العاقـل رضـي بالـدون من الـدنيا مـع

الحكمـة، ولم يـرض بالـدون من الحكمـة مـع الـدنيا، فلـذلك ربحت تجـارتهم.. يـا هشـام إن العقلاء تركـوا فضـول الـدنيا فكيف الذنوب، وتـرك الـدنيا من الفضـل، وتـرك الـذنوب من الفرض) [1]

إلى آخر الرسالة الـتي يمكنـك أن تبحث عنهـا، لتجعلهـا دستورا لك في حياتك.. وتلقي عنك كل القيود التي قيدك بها أولئك الـذين يريـدون منـك أن تصـير تابعـا ذليلا لهم، لا تابعـا عزيـزا للحـق الـذي لا يمكن أن تصـل للـه، ولا لرسـوله، ولا للورثة الصادقين من دونه.

---

[1] الكافي، 1/17.

لا تصاحب هؤلاء

أيها الرفيق العزيز.. لقد تأملت في المصائب التي نزلت بك، في دينك ودنياك، والتي ذكرتهـا لي، وأنت تتـألم، وتبكي، وقد رأيت أن أكثرها لا يعود إليك، ولا إلى الطباع الـتي جبلت عليها، وإنمـا يعـود إلى أولئـك الـذين اتخـذتهم رفاقـا وخلانـا، وصـرت كـالأخرس أمـامهم ليس لـك إلا أن تسـتمع وتتـأثر؛ فحولوا من حياتك إلى ما وصفته لي.

لقد ذكرتني تلك الأحاديث التي بثتهـا لي بقولـه تعـالى، وهو يصف مشـهدا من مشـاهد الآخـرة: {وَيَـوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَـلَّنِي عَنِ الـذِّكْرِ بَعْـدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 - 29]

ثم حمدت الله تعـالى، لأنـك عضضـت أصـابع النـدم في الدنيا، ولم تعضضها في الآخرة، حين لا ينفعك الندم.

ولهذا أدعوك أن تراجع كل علاقاتك، لا لتقطعهـا جميعـا، وتعتزل الناس، فمعاذ الله أن آمرك بالقطيعة، والمؤمن إلـف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف، ولا يؤلف.

ولكـني أوجهـك إلى تصـحيح المعـايير الـتي تختـار بهـا أصــدقاءك، فــأنت على حســب مــا ذكــرت لي كنت تنتقي الوجهاء والأثرياء.. وتتصور أنهم قد يقفون معك في المواقف الصعبة.. لكنك اكتشفت أنهم تركوك أحـوج مـا تكـون إليهم.. ولهم الحــق في ذلـك، فـأنت لم تكن صـادقا في صـحبتهم.. ولذلك أعطاك الله بحسب نيتك.

ولــو كنت صــادقا معهم، فصــحبتهم في اللــه وللــه، لا لغـرض من أغـراض الـدنيا، لمـا سـكت عن المنكـرات الـتي يقعـون فيهـا تأليفـا لقلـوبهم، وخشـية من نفـورهم.. فلـذلك باعوك بسبب بيعك للحقائق والقيم، وخانوك لأنـك أنت أيضـا كنت خائنا لهم بعدم نصيحتهم.

وليت الأمر توقف على ذلك، فأخلاقهم سرت إليك، وحولتك نسخة طبق الأصل لهم.. وكيف لا يحصل لك ذلك، وقد قال رسول الله ﷺ: (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)[1]

وقال: (مثل الجليس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة)[2]

لقد كان في إمكانك أيها الرفيق العزيز أن تختارك أولئك البسطاء الطيبين الممتلئين بالإيمان، والذين قد لا تجد لهم عندهم ما ينفعك في أمور الدنيا، لكنك ستنتفع بهم كثيرا في أمور الدين.. وسيرققون قلبك، ويملأونك إخلاصا وصلاحا وتقوى..

لكنك رغبت عنهم، ولم تسمع إلى أوامر الله تعالى بصحبة الصالحين، والصبر معهم، وقد قال: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الكهف: 28]، وقال معقبا على ذلك، ومحذرا من الغافلين أصحاب الأهواء:{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف: 28]

لو أنك سمعت إلى تلك الآية الكريمة، وسمعت معها قوله ﷺ: (انظروا من تحادثون، فإنه ليس من أحد ينزل به الموت إلا مثل له أصحابه في الله إن كانوا خيارا فخيارا، وإن كانوا شرارا فشرارا، وليس أحد يموت إلا مثلت له عند موته)[3]

1() رواه أبو داود ج 2 ص 559 و رواه الكليني في الكافي ج 2 ص 375 و 642.

2() رواه البخاري، الفتح 4 (2101) ، مسلم (2628) واللفظ له..

وسمعت معهما قول لقمان مخاطبا ابنه: (يا بـني.. كمـا ليس بين الذئب والكبش خلة، كذلك ليس بين البـار والفـاجر خلة، من يقترب من الزفت يعلق به بعضه كذلك من يشـارك الفاجر يتعلم من طرقه، من يحب المراء يشـتم، ومن يـدخل مداخل السوء يتهم، من يقارن قرين السوء لا يسـلم، ومن لا يملك لسانه يندم)[1]

لو أنك سمعت ذلك كله لجعلت الـدين والخلـق الحسـن المعيـار الأول في الصـحبة.. لأنـك باختيـارك للصـاحب قـد اخترت الصورة التي تريد أن تصير إليها.

أعلم ما ستقول لي أيها الرفيق العزيـز.. فـأنت سـتذكر لي ذلك الصاحب المتـدين الـذي صـحبته، ولم يـزدك إلا بعـدا عن ربك، وعن دينك، ولست أدري ما أقول لك.

لكني أذكرك أنـك تـوهمت أن التـدين لبـاس ومظـاهر، وليس عقلا وقلبـا وسـلوكا.. لـذلك بـدل أن تقـع في صـحبة المتـدين الصـالح، رحت تقـع في صـحبة المتـدين الأحمـق.. وأخطر أعداء الدين الحمقى.. لأنهم يجعلون من الدين نفسـه حمقا وغفلة.

ولـو أنـك سـمعت لوصـايا الحكمـاء في التحـذير من الحمقى، لوزنت عقل ذلك الصاحب قبل أن تنظـر إلى لحيتـه أو قميصه.. فبالعقـل يعبـد اللـه، وليس باللحيـة ولا باللبـاس، وقد قال الإمام علي محذرا من صحبة الحمقى: (لا عليـك أن تصـحب ذا العقـل وإن لم يحمـد كرمـه، ولكن انتفـع بعقلـه واحترس من سيئ أخلاقه، ولا تدعن صـحبة الكـريم، فـإن لم تنتفع بعقله ولكن انتفع بكرمه بعقلك، وافـرر كـل الفـرار من

3() الكافي ج 2 ص 638.

1() الكافي ج 2 ص 641.

اللئيم الأحمق)[1]

وقال: (إياك ومصادقة الأحمق فإنك أسر ما تكون من ناحيته أقرب ما يكون إلى مساءتك)[2]

وقال: (لا ينبغي للمسلم أن يواخي الفاجر، ولا الأحمق، ولا الكذاب)[3]

وقال:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه.. فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه

يقاس المرء بالمرء إذا ما ... وللشيء من الشيء

وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

وقال الشاعر:

إني لآمن من عدو ... وأخاف خلا يعتريه

فالعقل فن واحد ... أدرى وأرصد

وقال آخر:

اتّق الأحمق أن ... إنّما الأحمق كالثّوب

كلّما رقّعت منه ... خرقته الرّيح وهنا

أو كصدع في زجاج ... هل ترى صدع زجاج

كحمار السّوق إن ... رمح النّاس وإن

أو غلام السّوء إن ... سرق النّاس وإن

[1] () الكافي، ج 2 ص 638.

[2] () الكافي ج 2 ص 642.

[3] () الكافي، ج 2 ص 640.

وإذا عاتبته كي أفسد المجلس منه

وهكذاً ـ أيها الرفيق العزيز ـ يمكنك أن تنتقي أصحابك، لا على حسب ما يمليه عليك هواك، وإنما على حسب ما يمليه عليك عقلك ودينك.. واستعن بالحكماء، فهم عقل لعقلك، وحكمة لحكمتك.

وقد قال سيد الحكماء، الإمام علي، وهو يعظك ويعظني ويعظ الأمة جميعا: (ينبغي للمسلم أن يجتنب مؤاخاة ثلاثة: الماجن والأحمق والكذاب، فأما الماجن فيزين لك فعله، ويحب أن تكون مثله، ولا يعينك على أمر دينك ومعادك، ومقاربته جفاء وقسوة، ومدخله ومخرجه عليك عار، وأما الأحمق فإنه لا يشير عليك بخير، ولا يرجى لصرف السوء عنك ولو أجهد نفسه وربما أراد منفعتك فضرك، فموته خير، من حياته، وسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه، وأما الكذاب فإنه لا يهنئك معه عيش، ينقل حديثك وينقل إليك الحديث، كلما أفنى أحدوثة مطها بأخرى حتى أنه يحدث بالصدق فلا يصدق، ويغري بين الناس بالعداوة وينبت الشحناء في الصدور، فاتقوا الله وانظروا لأنفسكم)[1].

وقال بعده حفيده وتلميذه الإمام الصادق: (لا تصحب خمسة الكذاب فإنك منه على غرور، وهو مثل السراب يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب، والأحمق فإنك لست منه على شيء يريد أن ينفعك فيضرك، والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون إليه، والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة، والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها، فقيل: وما أقل منها؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها)[2].

وقال: (لا تكون الصداقة إلا بحدودها فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن

1() الكافي، ج 2 ص 376.

2() الكافي، ج 2 ص 376.

فيه شيء منها فلا تنسبه إلى شيء من الصـداقة: فأولهـا أن يكون سريرته وعلانيته لك واحدة، والثانية أن يرى زينك زينـه وشـينك شـينه، والثالثـة أن لا تغـيره عليـك ولايـة ولا مـال، والرابعـة أن لا يمنعـك شـيئا تنالـه مقدرتـه، والخامسـة وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات)[1]

هذه وصـاياهم لي ولـك ولكـل النـاس.. فاحمـل قلمـك، وشطب على كل صـاحب يحـول بينـك وبين ربـك.. فـأنت لم تـنزل لهـذه الـدنيا لتصـاحب الخلـق، وإنمـا نـزلت لتصـاحب الخالق، فكل من حال بينك وبينه ففر منه فرارك من الأسد.. فهو ليس سوى وحش قد تزين لك ليلتهمك.

[1] () الكافي، ج 2 ص 639.

لا تمش في الأرض مرحا

أيها الرفيق العزيز.. سمعتك البارحة، وأنت تتحدث عن سيارتك الجديدة الفاخرة، وأنها آخر طراز، وأنه لا يوجد نظير لها في البلدة التي تسكنها..

وقد أعجبك قول بعض محدثيك، وهو يتزلف إليك، ويصف الأعناق التي تشرئب إليك كلما سرت بها، ومثلها العيون التي تذهل عن كل شيء، لتحدق فيك وفيها.

وهكذا أعجبك إشادة الآخر بالبذلة التي تلبسها، والحذاء الذي تنتعله، والحقيبة الدبلوماسية التي تحملها، والنظارات الشمسية التي تستعملها..

وكنت تذكر لهم أن ذلك كله من متطلبات وظيفتك الجديدة، والتي تستدعي أن تظهر أمام الناس بذلك المظهر الخاص..

ولست أدري ما أقول لك، فأنا أعلم أن سيارتك القديمة كانت وافية بالغرض، وأنها أيضا كانت تعجبك.. لكنك استبدلتها، لا لعطب فيها، وإنما لأن صورتها ومظهرها لا يتناسبان مع وظيفتك الجديدة..

وهكذ أصبح لوظيفتك الجديدة، والمكانة الاجتماعية التي حصلت لك بسببها دورا كبيرا في كل حركاتك وسكنانك، وحتى في طريقة حديثك، ومشيتك، وحملك لأغراضك.. فأنت لم تعد تزور الأسواق، وأنت تحمل القفة كعادتك، لأن ذلك يضر بمكانتك الاجتماعية.. وهكذا لم تعد بتلك البساطة التي كنت تظهر بها أمام الناس، بل صار الناس يهابونك، ولا يكادون يستطيعون الحديث معك.

لقد ذكرني وضعك الحالي، ووظيفتك الجديدة، والأخلاق التي صرت بها، بقارون.. فهو أيضا ـ بعد أن نال الكنوز الكثيرة التي وصل إليها بعلمه واجتهاده وحيله ـ صار ذا مكانة

خاصة في بلدته ومجتمعه.

وبما أنه لم تكن في عهده سيارات فارهة مثل سيارتك، فقد عوضها بذلك الموكب الفخم الذي شد الانتباه، والذي وصفه الله تعالى بقوله: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ } [القصص: 79]

وهكذا أنت.. فقد كانت كل العيون التي تحدق فيك تسطر بنظراتها تلك الكلمات التي قالها الذين يريدون الحياة الدنيا.. فكلهم تمنوا أن يكون لهم ذلك النعيم، وتلك السيارة، وذلك الموكب، وتلك المكانة الاجتماعية.

وأنا لا أريد أن أوصيك، لأني أعلم أنك ستوبخني، وستذكر لي البون الشاسع بينك وبين قارون.. وأنني أظلمك عندما أشبهك به.. ولك الحق في ذلك، ولو أني لم أقصد بقارون شخصه، ولا كفره، ولا عتوه، وإنما قصدت تلك الخيلاء التي برز بها للناس، فامتلأوا عشقا للدنيا.. وكان سببا في ذلك العشق الآثم الذي تتولد منه كل الخطايا.

ولذلك سأذكر لك نموذجا مناقضا لنموذج قارون.. كانت له المكانة الرفيعة في الدين والدنيا، وفي عالم الملك وعالم الملكوت.. وكان له ــ مثلي ــ رفيق مثلك.. تولى بعض المناصب، فرأى أنها غيرت بعض سلوكه، فراح يكتب له رسالة ينصحه فيها بمثل ما أنصحك.

لا شك أنك عرفته.. ومن لا يعرفه.. إنه الإمام علي الذي كتب رسالة رقيقة إلى عامله على البصرة عثمان بن حنيف الأنصاري، بعد أن بلغه أنه دعي إلى وليمة قوم من أهلها فمضى إليها.. فكتب إليه يقول: (أمّا بعد يا ابن حنيف، فقد بلغني أنّ رجلا من فتية أهل البصرة، دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها، تستطاب لك الألوان، وتنقل إليك الجفان، وما ظننت أنّك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوّ، وغنيّهم مدعوّ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم، فما اشتبه

عليك علمه فالفظه، وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه) (1)

ثم راح يصف له حاله، ليأتم به، وتأتم به الأجيال من بعده، فقال: (ألا وإنّ لكلّ مأموم إماما يقتدي به، ويستضيء بنور علمه، ألا وإنّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه، ومن طعمه بقرصيه، ألا وإنّكم لا تقدرون على ذلك، ولكن أعينوني بورع واجتهاد، وعفّة وسداد.. فو اللّه ما كنزت من دنياكم تبرا، ولا ادّخرت من غنائمها وفرا، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا، ولا حزت من أرضها شبرا، ولا أخذت منه إلّا كقوت أتان دبرة، ولهي في عيني أوهى وأوهن من عفصة مقرة)

ثم ذكر له أن زهده في الدنيا ليس ناشئا عن جهله بها، وإنما هو ناشئ عن رغبته فيما عند الله.. وحتى يستوي هو وأبسط المستضعفين من رعيته، ولا يتميز عنهم بمركب ولا ملبس ولا أي هالة من الهالات التي تضعها عليك.. فلا يمكن أن يدرك عوز المعوزين، ولا فقر الفقراء من ميز نفسه عن غيره.

لقد كتب الإمام علي يقول له: (و لو شئت لاهتديت الطّريق إلى مصفّى هذا العسل، ولباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشّبع!! أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى، وأكباد حرّى!! أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن ... وحولك أكباد تحنّ

وهكذا راح يذكر له الأثر الحقيقي للمكانة الاجتماعية، وهو الجد في مصالح الناس، والعمل لخدمتهم، لا شد انتباههم، والتطاول عليهم.. فقال: (أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدّهر؟ أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش، فما خلقت ليشغلني أكل الطّيّبات، كالبهيمة المربوطة همّها علفها، أو المرسلة

(1) نهج البلاغة: الكتاب رقم(45)

شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها وتلهو عمّا يراد بها، أو أترك سدى أو أهمل عابثا، أو أجرّ حبل الضّلالة، أو أعتسف طريق المتاهة)

ثم ختم الرسالة بهذا الشعار الذي لا ينبغي لأحد يخاف الله أن ينساه أو يغفل عنه، لقد قال له: (فاتّق اللّه يا ابن حنيف، ولتكفف أقراصك، ليكون من النّار خلاصك)

وهكذا ذكر في خطبة أخرى الأنبياء الكرام عليهم السلام، أولئك الذين نالوا أعظم مكانة، وأشرف درجة، ومع ذلك لم يزدهم الشرف ولا المكانة إلا زهدا وتواضعا.. لقد قال يصف رسول الله ﷺ: (و لقد كان في رسول اللّه ﷺ كاف لك في الأسوة، ودليل لك على ذمّ الدّنيا وعيبها، وكثرة مخازيها ومساويها، إذ قبضت عنه أطرافها، ووطّئت لغيره أكنافها، وفطم عن رضاعها، وزوي عن زخارفها)

وقال يصف موسى عليه السلام: (وإن شئت ثنّيت بموسى كليم اللّه عليه السّلام حيث يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، واللّه ما سأله إلّا خبزا يأكله، لأنّه كان يأكل بقلة الأرض، ولقد كانت خضرة البقل ترى من شفيف صفاق بطنه، لهزاله وتشذّب لحمه)

وقال يصف داود عليه السلام: (.. وإن شئت ثلّثت بداود عليه السّلام صاحب المزامير، وقارئ أهل الجنّة، فلقد كان يعمل سفائف الخوص بيده، ويقول لجلسائه: أيّكم يكفيني بيعها؟ ويأكل قرص الشّعير من ثمنها)

وقال يصف المسيح عليه السلام: (.. وإن شئت قلت في عيسى ابن مريم عليه السّلام فلقد كان يتوسّد الحجر، ويلبس الخشن، ويأكل الجشب، وكان إدامه الجوع، وسراجه باللّيل القمر، وظلاله في الشّتاء مشارق الأرض ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم، ولم تكن له زوجة تفتنه، ولا ولد يحزنه، ولا مال يلفته، ولا طمع يذلّه، دابّته

رجلاه، وخادمه يداه) [1]

ثم ختم خطبته بذكر حبيته ﷺ، الذي رباه على عينه، فقال: (فتأسّ بنبيّك الأطيب الأطهر ﷺ فإنّ فيه أسوة لمن تأسّى، وعزاء لمن تعزّى، وأحبّ العباد إلى اللّه المتأسّي بنبيّه، والمقتصّ لأثره.. قضم الدّنيا قضما، ولم يعرها طرفا، أهضم أهل الدّنيا كشحا، وأخمصهم من الدّنيا بطنا، عرضت عليه الدّنيا فأبى أن يقبلها، وعلم أنّ اللّه سبحانه أبغض شيئا فأبغضه، وحقّر شيئا فحقّره، وصغّر شيئا فصغّره.. ولو لم يكن فينا إلّا حبّنا ما أبغض اللّه ورسوله، وتعظيمنا ما صغّر اللّه ورسوله، لكفى به شقاقا للّه، ومحادّة عن أمر الله)

ثم راح يصف حاله ﷺ، وزهده في الدنيا، وتواضعه فيها، فقال: (و لقد كان ﷺ يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع بيده ثوبه، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه. ويكون السّتر على باب بيته، فتكون فيه التّصاوير فيقول: يا فلانة- لإحدى أزواجه- غيّبيه عنّي، فإنّي إذا نظرت إليه ذكرت الدّنيا وزخارفها. فأعرض عن الدّنيا بقلبه، وأمات ذكرها من نفسه، وأحبّ أن تغيب زينتها عن عينه، لكيلا يتّخذ منها رياشا، ولا يعتقدها قرارا، ولا يرجو فيها مقاما، فأخرجها من النّفس، وأشخصها عن القلب، وغيّبها عن البصر، وكذلك من أبغض شيئا أبغض أن ينظر إليه، وأن يذكر عنده)

ثم راح يخاطب عقلي وعقلك وعقول الناس جميعا، فيقول: (لقد كان في رسول اللّه ﷺ ما يدلّك على مساوئ الدّنيا وعيوبها، إذ جاع فيها مع خاصّته، وزويت عنه زخارفها مع عظيم زلفته، فلينظر ناظر بعقله، أكرم اللّه محمّدا بذلك أم أهانه؟.. فإن قال: أهانه فقد كذب واللّه العظيم بالإفك العظيم.. وإن قال: أكرمه، فليعلم أنّ اللّه قد أهان غيره حيث بسط الدّنيا له، وزواها عن أقرب النّاس منه.. فتأسّى متأسّ بنبيّه، واقتصّ أثره، وولج مولجه، وإلّا فلا يأمن الهلكة،

[1] () نهج البلاغة: الخطبة رقم 160.

فإنّ اللّه جعل محمّدا ﷺ علما للسّاعة، ومبشّرا بالجنّة، ومنذرا بالعقوبة، خرج من الدّنيا خميصا، وورد الآخرة سليما، لم يضع حجرا على حجر حتّى مضى لسبيله، وأجاب داعي ربّه.. فما أعظم منّة اللّه عندنا حين أنعم علينا به، سلفا نتّبعه، وقائدا نطأ عقبه)

ولم تكن مواعظه قاصرة على لسانه، بل كان فعله أبلغ من لسانه، وقد رويت الروايات الكثيرة من أحبابه وأعدائه تصفه وتصف تواضعه وزهده وحاله، وهو أمير المؤمنين، وقد ذكره الأرقم، فقال: (رأيت علي بن أبي طالب يعرض سيفا له في رحبة الكوفة ويقول: (من يشتري مني سيفي هذا والله لقد جلوت به غير مرة عن وجه رسول الله ﷺ ولو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه)[1]

وذكره سفيان، فقال: (إن عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وان كان ليؤتى بحبوبه من المدينة في جراب.. وكان يختم على الجراب الذي يأكل منه ويقول: لا احب أن يدخل بطني إلا ما اعلم) [2]

وذكره عمر بن قيس، فقال: (رئي على علي إزار مرقوع فقيل له فقال: (يقتدى به المؤمن ويخشع به القلب) [3]

وذكره ابنه الحسن، فقال: (في صبيحة الليلة التي قتل فيها أمير المؤمنين والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثلاثمائه درهم فضلت من عطائه)[4]

1() الكامل لابن الأثير ج3 ص201.

2() الكامل لابن الأثير ج3 ص201.

3() منتخب الكنز ج3 ص57.

4() الإمامة والسياسة ج1 ص170.

هذا هو ربان سفينة النجاة ـ أيها الرفيق العزيز ـ فاركب معه، ولا تـركب مـع قـارون، حـتى لا يخسـف بـك وبسـيارتك وبذلتك وحقيبتك ونظارتك ومكانتك ووظيفتك الأرض..

لا تصعر خدك للناس

أيها الرفيق العزيز.. لقد سمعت البارحة بعضهم يحـــدثك عن الوقـار، وينصـحك بـأن تتجـافى عن النـاس، لأنهم عـوام دهمــاء، لا يصـــلك منهم إلا الأذى والشـــر، وأن الخـــير في أن تكفهر في وجوههم، حتى لا يطمعوا فيك، ولا يقتربوا منك..

ولم أعجب من حديثه، ولكني عجبت من استحسانك له، واقتناعك به، وكأنـك لم تقـرأ قولـه تعـالى في وصـية لقمـان الحكيم لابنــه: {وَلَا تُصَـعِّرْ خَـدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًـا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ (18) وَاقْصِـدْ فِي مَشْـيِكَ وَاغْضُـضْ مِنْ صَـوْتِكَ إِنَّ أَنْكَـرَ الْأَصْـوَاتِ لَصَـوْتُ الْحَمِيرِ} [لقمان: 18، 19]

فهـل تـرى أن ذلـك الصـاحب الـذي وسـوس لـك بتلـك الكلمات أكثر حكمة من لقمان؟.. أم ترى أن الناس في عهد لقمـان كـانوا أكـثر رحمـة وتواضـعا ولطفـا من النـاس في زمنـك؟.. أم أنـك تـرى نفسـك أرفـع مكانـة وقيمـة من ولـد لقمان، فلذلك لا تحتاج إلى نصيحة كنصيحته؟

لا بأس.. فليكن ذلك.. ولكن مـا تقـول في قولـه تعـالى موصيا رسول الله ﷺ: { وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88]، وقوله: { وَاخْفِضْ جَنَاحَـكَ لِمَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ } [الشعراء: 215]؟

فهاتان الآيتان الكريمتان خطاب من الله تعالى لرســول اللــه ﷺ، ودعـوة لـه للتواضـع للمؤمـنين، وأن يخفض جناحـه لهم، ليستطيعوا الحديث معه، والاستفادة منه، والتربيــة على يديه.. فالذي يـترفع ويتـوقر لن يسـتفيد منـه إلا هـواه وكـبره وشيطانه.

ولهذا وصف الله تعالى عباد الرحمن أولئك الذين هـيئت لهم الجنان العليا بقوله: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُــونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَـلَامًا } [الفرقـان:

وهذا أول وصف من أوصـافهم، ولـولاه لم يكونـوا بتلـك الدرجة، ولم ينالوا ذلك الثواب، فكرامة اللـه لعبـاده مرتبطـة بعبوديتهم، وعبوديتهم مرتبطـة بتواضـعهم.. والـذي قـد يصـل إلى حد المذلة، كما قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: 54]

هذه هي أوصاف المؤمنين ـ أيها الرفيـق العزيـز ــ وهي الـتي تضـع على رأسـك تـاج الوقـار الحقيقي، لا تـاج الوقـار المزيف.. فالوقار هبة الله للمتواضعين الممتلـئين بالعبوديـة، وليس للمسـتكبرين منـه حـظ.. وحـتى لـو هـابهم النـاس، فهيبتهم هيبة خوف، لا هيبـة محبـة، وهي سـرعان مـا تتحـول إلى استخفاف وسخرية.

ولهذا نصحنا رسول الله ﷺ بأن نطلب الوقار من أبوابـه الحقيقية، لا من أبوابه المزيفـة، فقـال: (طـوبى لمن تواضـع في غير منقصة، وذلّ في نفسه من غير مسألة، وأنفـق مـالا جمعه في غير معصية، ورحم أهـل الـذّلّ والمسـكنة، وخالـط أهـل الفقـه والحكمـة.. طـوبى لمن طـاب كسـبه، وصـلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن النّاس شرّه، طوبى لمن عمل بعلمـه، وأنفـق الفضـل من مالـه، وأمسـك الفضـل من قوله)(1)

وقـال: (وإنّ اللـه أوحى إليّ أن تواضـعوا حتّى لا يفخـر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) (2)

وقال:(ما من امرئ إلّا وفي رأسه حكمة، والحكمـة بيـد ملك إن تواضع قيل للملك: ارفع الحكمـة، وإن أراد أن يرفـع

(1) الترغيب والترهيب (3/ 558) وقال: رواه الطبراني ورواته إلى نصيح ثقات.

(2) مسلم (2865)

قيل للملك: ضع الحكمة أو حكمته) (1)

وقال: (ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلّا عزّا، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله) (2)

وقال:(من ترك اللّباس تواضعا لله، وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتّى يخيّره من أيّ حلل الإيمان شاء يلبسها)(3)

وقال: (ابغوني في ضعفائكم فإنّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم) (4)

وقال: (ألا أخبركم بأهل الجنّة؟) قالوا: بلى. قال ﷺ: (كلّ ضعيف متضعّف لو أقسم على الله لأبرّه). ثمّ قال: (ألا أخبركم بأهل النّار؟) قالوا: بلى. قال: (كلّ عتلّ جوّاظ مستكبر)(5)

وقال: (احتجّت النّار والجنّة فقالت هذه: يدخلني الجبّارون والمتكبّرون. وقالت هذه: يدخلني الضّعفاء والمساكين. فقال الله عزّ وجلّ لهذه: (أنت عذابي أعذّب بك من أشاء) وقال لهذه (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء).

1() رواه البزار وإسناده حسن، مجمع الزوائد (8/ 83)

2() مسلم (2588)

3() أحمد في المسند (3/ـ 439) والترمذي (2481) واللفظ له وقال: حديث حسن، وحسنه الألباني. والحاكم في المستدرك (1/ـ 61) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي..

4() الترمذي (1702) وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم في المستدرك (2/ 106) وأقره الذهبي.

5() البخاري- الفتح 01 (6071) . مسلم (2853) واللفظ له.

ولكلّ واحدة منكما ملؤها) (1)

وقال: (من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كــبر كبّه الله لوجهه في النّار) (2)

وغيرها من الأحاديث الكثيرة التي يغنيك التأمل فيها عن تلك النصائح الشيطانية التي أسداها ذلـك الرفيـق الـذي أراد أن يمحو أجمل ما فيك..

وإن شئت أن ترى قدوة لك في ذلك تغنيك عن الجميع، فيكفي أن تـرى رسـول اللـه ﷺ من خلال الروايـات الكثـيرة الـتي رويت عنـه.. والـتي تتفـق جميعـا مـع تلـك التوجيهـات الربانية، والحكم النبوية، فقد وصـف بعضـهم سـلوك رسـول الله ﷺ فقـال:(كـان ﷺ يمـازح أصـحابه ويخـالطهم ويحـادثهم ويـداعب صـبيانهم ويجلسـهم في حجـره ويجيب دعـوة الحـر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضـى في أقصـى المدينـة ويقبل عذر المعتـذر، قـال أنس: مـا التقم أحـد أذن النـبي ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجـل هـو الـذى ينحى رأسـه، ومـا أخذه بيده فيرسـل يـده حـتى يرسـلها الآخـذ، ولم يـر مقـدما ركبتيه بين يدى جليس له، وكان يبدأ من لقيـه بالسـلام ويبـدأ أصحابه بالمصافحة، لم ير قط مادا رجليـه بين أصـحابه حـتى يضيق بهما على أحد، يكرم من يدخل عليه، وربمـا بسـط لـه ثوبه، ويؤثره بالوسادة التى تحته، ويعـزم عليـه في الجلـوس عليهـا إن أبى، ويكـنى أصـحابه، ويـدعوهم بـأحب أسـمائهم تكرمـة لهم، ولا يقطـع على أحـد حديثـه، وروى أنـه كـان لا يجلس إليه أحد وهو يصلى إلا خفف صلاته وسأله عن حاجتـه فإذا فرغ عاد إلى صلاته، وكـان أكـثر النـاس تبسـما وأطيبهم

1() البخارى الفتح 13 (7449)، ومسلم (2846 واللفظ له.

2() رواه أحمد (2/ 215)

نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يعظ أو يخطب)[1]

وقد اتفق جميع واصفيه على أنه أكثر النـاس ابتسـامة.. فلم يكن بالعبوس المكفهر الذي يستجلب الوقار بـذلك.. بـل كان هينا لينا سهلا منبسطا، وقد وصفه بعض أصـحابه فقـال: (ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله ﷺ)[2]

وسئل آخـر: أكنت تجـالس رسـول اللـه ﷺ؟ قـال: (نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلاه الذي يصـلى فيـه الصـبح حـتى تطلع الشمس، فإذا طلعت قام، وكانوا يتحـدثون، فيضـحكون ويبتسم) [3]

وقال آخر: (كان النـبي ﷺ كالرجـل من رجـالكم، إلا أنـه كان أكرم الناس، وألين الناس ضحّاكا بسّاما) [4]

وكان فوق ذلك كله يشارك الناس في كل أعمـالهم؛ فلا يترفع عن أي عمل، مع الوظـائف الكبـيرة الـتي أنيطت بـه.. وقد ذكر بعضهم كيف كان مع عوام الناس يشـارك في حفـر الخنــدق مــع كونــه القائــد الأعلى للأمــة، وزعيمهــا الأكــبر، ورسولها الأعظم، فعن البراء قال: رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يـوم الخنـدق حـتى وارى الـتراب بيـاض بطنـه، وكـان كثيف الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات لابن رواحة:

والله لولا ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا وثبت الاقدام إن لاقينا

1() انظر: عيون الأثر: 2/423.

2() رواه الترمذي.

3() رواه مسلم.

4() مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص 397.

والمشركون قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ورفع بها صوته: أبينا أبينا[1].

وقد وصفت عائشة ما كـان يصـنع ﷺ في بيتـه، فقـالت: (كان بشرا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخيط ثوبـه، ويخدم نفسه، ويخصـف نعلـه، ويعمـل مـا تعمـل الرجـال في بيوتهم، ويكون في مهنة أهله، يعني خدمـة أهلـه، فـإذا سـمع المؤذن خرج إلى الصلاة)[2]

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ يعمل عمل أهـل الـبيت وأكثر ما يعمل للخياطة[3].

وكان ﷺ فوق ذلـك كلـه إذا نـام النـاس يشـتغل حارسـا لهم، فيهب عند كل فزعة، فعن محمد بن الحنفية قـال: كـان رسول الله ﷺ أشجع النـاس، وقـال: فـزع أهـل المدينـة ذات ليلة، فانطلق الناس قبـل الصـوت، فتلقـاهم رسـول اللـه ﷺ راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحـة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا، ما وجدت من شـئ، وقـال للفـرس: وجـدناه بحـرا، وإنـه لبحـر، قال: وكان فرسه بطيئا فيه قطاف فما سبق بعد[4].

وكان ﷺ عند الغزو هو الترس الـذي يتترسـون بـه، فعن بعض الصحابة قال: كنا إذا حمي البـأس ولقي القـوم القـوم، اتقينا برسـول اللـه ﷺ، فمـا يكـون منـا أحـد أدنى من القـوم

---

[1] رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

[2] رواه البخاري ومسلم.

[3] رواه ابن سعد.

[4] رواه ابن سعد، وهذا من جملة معجزاتـه ﷺ كونـه ركب فرسـا قطوفـا بطيئـا فعاد بحرا لا يسابق، ولا يجارى.

منه(1).

وروى عنه أيضا قال: لما كنا يوم بـدر اتقينـا المشـركين برسول الله ﷺ، وكان أشد الناس بأسا يومئذ، ومـا كـان أحـد أقرب من المشركين منه.

وعن الـبراء سـأله رجـل من قيس: أفـررتم عن رسـول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال البراء: ولكن رسول الله ﷺ لم يفر، كـانت هـوازن ناسـا رمـاة، وإنـا لمـا حملنـا عليهم انكشـفوا، وأكببنا على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام، ولقـد رأيت رسـول الله ﷺ على بغلته البيضاء، وإن أبـا سـفيان بن الحـارث آخـذ بلجامها، وهو يقول: (أنا النبي لا كذب، أنـا ابن عبـد المطلب) (2)

وهكــذا كــان ﷺ يشــارك عــوام النــاس في الصــغيرة والكبــيرة، ويقضــي حاجــاتهم، ويجيب دعــواتهم، ويســمع شكاواهم، فعن عبد الله بن أبى أوفى قال: كان رسـول اللـه ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصـلاة، ويقصـر الخطبـة، ولا يأنف، ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين يقضي لهما حاجتهما(3).

وعنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع الضعيف، والأرملة، فيفرغ لهم من حاجاتهم(4).

وقد استدل عدي بن حاتم بهذا السـلوك على نبوتـه ﷺ، فقد روي أنه أتى رسول الله ﷺ فإذا عنده امرأة وصـبيان، أو صبي، فذكر قربهم من النبي ﷺ، قال: فعرفت أنه ليس ملك

1() رواه أحمد، وابن ماجه.

2() رواه ابن أبي شيبة.

3() رواه الدارمي.

4() رواه الخرائطي.

كسرى وقيصر[1].

وكان ﷺ يعود مرضى المسلمين، ويهتم بهم، فعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أخبره أن مسكينة مرضت، فأخبر رسول الله ﷺ بمرضها، وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم[2].

وكان ﷺ يجيب أي دعوة لا يهمه ما كانت، ولا ممن كانت، فعن ابن عباس قال: إن كان الرجل من أهل العوالي ليدعو رسول الله ﷺ نصف الليل على خبز الشعير فيجيبه[3].

بل كان ﷺ لا يفرق في إجابة الدعوة بين مسلم وكافر، فعن أنس أن يهوديا دعا رسول الله ﷺ إلى خبز شعير وإهالة سنخة فأجابه[4].

هذه هي سنة رسول الله ﷺ.. وهي التي أثنى الله تعالى عليها في كتابه، ودعانا إلى الاستنان بها، فقال: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]

أما سنة الطواغيت والجبابرة التي ذكرها لك ذلك

---

[1]() رواه البخاري في الأدب، وروي عبد بن حميد عن عدي بن حاتم قال: أتينا رسول الله ﷺ، وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عدي، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دفعت إليه أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي قال: فقام معي فلقيته امرأة وصبي معها فقالا: لنا إليك حاجة، فقام معهما، حتى قضى حاجتهما.

[2]() رواه أبو ذر الهروي في دلائله.

[3]() رواه الطبراني، ورواه مسدد مرسلا برجال ثقات.

[4]() رواه أحمد وابن سعد وابن شيبة.

الصاحب، فقد عبر الله تعالى عنها بتلك النماذج التي نقلها من أولئك الظلمة المتكبرين الذين أنفوا من أن يصحبوا الرسل خشية من أن يتساووا مع العبيد والإماء والمستضعفين، فقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ } [البقرة: 13]

لا تهجر كلمات ربك

أيها الرفيق العزيز.. أنا أقدر كثيرا شغفك بمطالعة الكتب، واهتمامك بكل ما تصدره المطابع ودور النشر منها.. وتتبعك لكل جديد، وتنقيبك عن كل قديم، فكل ذلك مما يوسع آفاقك، ويجعل من عقلك عقولا كثيرة.

لكني أعتب عليك فقط تقصيرك في مطالعة كلمات ربك وتدبرها ومحاولة استكشاف الحقائق المخزونة بين طيات حروفها.. فتلك الكلمات المقدسة لا يمكن أن تقارن بها أي كلمات..

وكيف يقارن كتاب ألفه أرسطو أو أفلاطون أو نيتشة أو انشتاين بكتاب أملاه الله تعالى على خلقه، بين لهم فيه أسرار الوجود، وحقائق الكون، ومصيره، ومصيرهم، وذكر فيه من الأسرار ما لا يمكن لأي عقل في الدنيا أن يصل إليه.. بل لا يمكن لأي عقل في الكون جميعا أن يعرفه لولا كلمات الله المقدسة التي منّ بها على عباده.

ألا ترى أنك بذلك الجفاء الذي تمارسه مع كلمات ربك، تقع في الجحود، حيث تأتيك الرسائل من كل الجهات، فتقرأها، وتستوعبها، وتتدبرها، وتهتم بها، بينما تأتيك رسالة ربك، فلا تكاد تبالي بها، أو تراعي تلك المعاني العظيمة التي حوتها.

لقد ورد في بعض الآثار أن الله تعالى خاطب عباده المقصرين مع كلماته قائلا: (عبدي أمّا تستحيي منّي يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعد لأجله وتقرأه وتتدبّره حرفا حرفا حتّى لا يفوتك منه شيء، وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم وصلت لك فيه من القول؟ وكم كرّرت عليك فيه لتتأمّل طوله وعرضه؟ ثمّ أنت معرض عنه، أ فكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي، يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكلّ وجهك

وتصغي إلى حديثه بكلّ قلبك، فإن تكلّم متكلّم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كفّ وها أنا ذا مقبل عليك ومحدّث لك وأنت معرض بقلبك عنّي، فجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك)[1]

وهكذا أنت أيها الرفيق العزيز.. فالتقصير مع الكتاب تقصير مع مؤلفه.. وأنا أراك تعدد أسماء المؤلفين.. وأسماء المؤلفات التي قرأتها لهم.. وتجعل اهتمامك بها بحسب اهتمامك بمنازل مؤلفيها.. فهل هناك منزلة أعظم من الله.. الذي كل شيء منه، وبه، وإليه؟

أعلم ما ستقول لي.. فأنت قرأت القرآن الكريم مرات عديدة، وحفظت الكثير من سوره.. وأنت ترى أن ذلك كاف.. وذلك غير صحيح.. فكلمات الله لا حدود لها.. فهي كالماء الذي لا يمكنك أن تستغني عنه.. بل هي كالهواء الذي تختنق إن منعت نفسك منه.

لقد ذكر الله تعالى ذلك عن كتابه، واعتبره شفاء لكل داء، فقال: { يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ } [يونس: 57]

واعتبره النور الذي لا يمكن لأحد أن يرى الحياة على حقيقتها من دون الاستضاءة به، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)} [النساء: 174، 175]

وهكذا، فالقرآن الكريم هو المعراج الذي ترتقي به أرواحنا في سلم الكمال، ولا يمكن لروح أن تعرج دون أن تمسك به، وتتمسك به، وفي الحديث قال رسول الله ﷺ:

---
[1] () المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج2، ص: 219.

يقال لقارئ القـرآن: اقـرأ ورتـل وارتـق كمـا كنت ترتـل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية كنت تقرؤها)(1)

وسر ذلك أن كل قراءة جديدة تعطيـك معـاني جديـدة، وأسرارا جديدة، لم تكن لتفهمهـا لـو اقتصـرت على قراءتـك الأولى، مثل الدواء الذي لا يمكن أن يقوم بدوره في جسدك، مـا لم يتـنزل عليـه كـل حين، ويسـري بين الـدماء مـا دامت الدماء محتاجة إليه.

وهكذا الروح مع كلمات ربها.. فهي الماء الـذي تشـربه، والهـواء الـذي تتنفسـه، والـدواء الـذي تقضـي بـه على كـل الآفات، والسلم الذي تصعد به أعلى الدرجات.. وقـد ورد في الحـديث قولـه ﷺ: (القـرآن هـدى من الضـلال، وتبيـان من العمى، واستقالة من العـثرة، ونـور من الظلمـة، وضـياء من الأجداث، وعصمة من الهلكة، ورشـد من الغوايـة، وبيـان من الفتن، وبلاغ من الـدنيا إلى الآخـرة، وفيـه كمـال دينكم، ومـا عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار)(2)

ولهذا كان الرسول ﷺ وورثته الكـرام لا يوصـون بشـيء كمـا يوصـون بـالقرآن الكـريم، لأنهم يعلمـون أن من قـرأه بصدق وإخلاص، وعاش في بحار كلماته المقدسـة، سـيتطهر لا محالة.. بل سيسمو في الآفاق العليا حتى ينال رضوان الله الذي لا يناله إلا الطاهرون الصادقون المقدسون.

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ: (من قـرأ القـرآن، ثمّ رأى أنّ أحدا أوتي أفضل ممّا أوتي فقد استصـغر مـا عظّمـه اللّه)(3)، وقال: (إنّ أهل القرآن في أعلى درجة من الآدميّين مـا خلا النـبيّين والمرسـلين، فلا تستضـعفوا أهـل القـرآن

1() الترمذي (2914) وأبو داود (1464)

2() الكافي، 2/600.

3() رواه الطبراني والكليني في الكافي.

حقـوقهم، فـإنّ لهم من اللّـه العزيـز الجبّـار لمكانـا عليّـا)[1]، وقال: (ما من شفيع أفضل منزلة عند اللّـه يـوم القيامـة من القرآن، لا نبيّ ولا ملك ولا غيره)[2]، وقال: (خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه)[3]، وقال: (أهل القرآن أهل اللّه وخاصّته)[4]، وقال: (إنّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فقيـل: يـا رسـول اللّه وما جلاؤها؟ فقال: تلاوة القرآن وذكر الموت)[5]

وقـال مبينـا الفضـل العظيم الـذي ينالـه قـراء القـرآن الحريصين عليـه المتـأدبين بآدابـه: (إذا التبسـت عليكم الفتن كقطع اللّيل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشـفّع، ومـا حـل مصـدّق، من جعلـه أمامـه قـاده إلى الجنّـة، ومن جعلـه خلفه ساقه إلى النار، وهو الدّليل يدلّ على خير سـبيل، وهـو كتاب فيه تفصيل، وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بـالهزل، ولـه ظهـر وبطن، فظـاهره حكم وباطنـه علم، ظـاهره أنيـق وباطنـه عميـق، لـه تخـوم وعلى تخومـه تخـوم، لا تحصـى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصـابيح الهـدى ومنـار الحكمـة، ودليل على المعرفة)[6]

وهكذا تكلم تلميذ رسول الله ﷺ الأكبر، ووارثه الأعظم، من أوتي مفاتيح باب الحكمة الإمام علي، فقد قال في بعض

---

[1] () الكافي، ج 2 ص 603.

[2] () قال العراقي: رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلا، وللطبراني من كلام ابن مسعود (القرآن شافع مشفع ولمسلم من كلام أبي امامة (اقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعا لصاحبه)

[3] () البخاري ج 6 ص 236، والدارمي ج 2 ص 437.

[4] () ابن ماجه رقم 215، و الحاكم في المستدرك ج 1 ص 556.

[5] () البغوي في مشكاة المصابيح ص 189 عن البيهقي.

[6] () الكافي، ج 2 ص 598.

وصـايا‌ه: (ثمّ أنـزل عليـه الكتـاب نـورا لا تطفـؤ مصـابيحه، وسراجا لا يخبو توقّده، وبحرا لا يدرك قعره، ومنهاجا لا يضـلّ نهجه، وشعاعا لا يظلم نوره، وفرقانا لا يخمد برهانـه، وبنيانـا لا تهـدم أركانـه، وشـفاء لا تخشـى أسـقامه، وعـزّا لا تهـزم أنصاره، وحقّا لا تخذل أعوانه، فهو معدن الإيمـان وبحبوحتـه، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانـه، وبحـر لا ينزفـه المسـتنزفون، وعيـون لا ينضـبها المـاتحون، ومناهـل لا يغيضـها الـواردون، ومنـازل لا يضـلّ نهجهـا المسـافرون، وأعلام لا يعمى عنهـا السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصـدون، جعلـه اللّـه تعـالى ريّا لعطش العلمـاء، وربيعـا ممرعـا لقلـوب الفقهـاء، ومحـاجّ لطرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة، وحبلا وثيقـا عروتـه، ومعقلا منيعـا ذروتـه، وعـزّا لمن تـولّاه، وسـلما لمن دخلـه وهـدى لمن ائتمّ بـه، وعـذرا لمن انتحلـه، وبرهانا لمن تكلّم به، وشاهدا لمن خاصم به وفلجا لمن حـاجّ به، وحاملا لمن حمله، ومطيّة لمن أعملـه، وآيـة لمن توسّـم، وجنّـة لمن اسـتلأم، وعلمـا لمن وعى، وحـديثا لمن روى، وحكما لمن قضى)(1).

وعلى دربه قال الإمام السجاد مرغبـا في الإدمـان على قراءة القرآن: (آيات القرآن خزائن العلم فكلّما فتحت خزانة ينبغي لك أن تنظر ما فيها)(2)

وقـال: (لـو مـات من بين المشـرق والمغـرب لمـا استوحشت بعـد أن يكـون القـرآن معي)، وقـد روي أنـه قـرأ قوله تعالى:، وكان عليه السّلام إذا قرأ {مَالِـكِ يَـوْمِ الـدِّينِ} [الفاتحة: 4]، وبقي يكرّرها حتّى كاد يموت)(3)

---

(1) نهج البلاغة، خطبة 196.

(2) الكافي، ج 2 ص 609.

(3) الكافي، ج 2 ص 602.

و روي أنـه سـئل: أيّ الأعمـال أفضـل؟ فقـال: الحـالّ المرتحل، فقيل له: وما الحالّ المرتحـل؟ قـال: (فتح القـرآن وختمه، كلّما جاء بأوّله ارتحل في آخره)[4]

وهكذا نطق كل الحكمـاء، وأوصـى كـل الورثـة، فعليـك بوصـيتهم، وتمسـك بالحبـل الـذي دلـوك عليـه، وسـترى أن شياطين الإنس والجن ستحاول أن تبعدك عنه، وسـتزين كـل شيء لتصرفك عن حقائقه الجميلة.. لتضلك عن سبيل اللــه، فإياك والالتفات إليها.. واصبر مع كلام ربك، لينقلـك اللـه من حال المجاهدة إلى حال المكافأة، وحين سيصبح القرآن مثـل الهواء الذي تتنفسه، والذي لا تستطيع أن تستغني عنه.

وقد قال بعض الحكماء يذكر تجربته مع القرآن الكــريم: (كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعّمت به عشرين سنة)

وقـال آخـر: (كنت أقـرأ القـرآن فلا أجـد لـه حلاوة حتّى تلوته كأنّي أسمعه من رسول اللّه ﷺ يتلوه على أصـحابه، ثمّ رفعت إلى مقام فوقه فكنت أتلوه كأنّي أسـمعه من جبرئيـل عليه السّلام يلقيه على رسـول اللّـه ﷺ، ثمّ جـاء اللّـه تعـالى بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلّم به فعنـدها وجـدت له لذّة ونعيما لا أصبر عنه)

و قـال آخـر: (لـو طهـرت القلـوب لم تشـبع من قـراءة القرآن، وذلك لأنّها بالطهارة تترقّى إلى مشاهدة المتكلّم في الكلام)

وصدق هـؤلاء جميعـا، فـالكلام دليـل على المتكلم، وقـد قال الإمام الصادق: (واللّه لقـد تجلّى اللّـه لخلقـه في كلامـه ولكن لا يبصرون)

4() الكافي، ج 2 ص 605.

لا تنصب نفسك قاضيا

أيهـا الرفيـق العزيـز.. لقـد رأيتـك في مجالسـك، وأنت تمتحن من يجلسـون إليـك في دينهم وعقائـدهم ومـواقفهم، فتحكم عليهم بأقسى الأحكام بناء على ما ذكروه لك من آراء أو مواقف.. ولو أنـك بـدل ذلـك رحت تحـاورهم، وتناقشـهم، وتحاول أن تتعرف على أسرار ما ذهبوا إليه لكان أفضـل لـك ولهم؛ فهم لا يحتاجونك قاضيا، وإنما يحتاجونك هاديا.

ولو أنك قرأت بروحك وقلبك ما ورد في القرآن الكـريم من وصـف الوظـائف الـتي وكلت إلى رسـول اللـه ﷺ، وهـو المعصـوم المؤيـد بـالوحي الإلهي، والمختـار لخطـاب النـاس جميعا، لاعتزلت مناصب القضاء التي وهبتها لنفسك، أو وهبها لك الشيطان حين صور لك أنك وصي على عباد اللـه.. وأنـك أنت من يصنفهم بحسب ما تملي عليه نفسـه وهـواه.. وأنـك بعــد ذلــك من يــدخلهم الجنــة، أو من يــرميهم في دركــات الجحيم.

لقد قال الله تعالى يصف وظيفة رسول الله ﷺ، وأنها لا تتعدى تبليغ ما أمر بتبليغه:{وَإِنْ مَـا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِـدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: 40]

وعلمه ما يقوله لأهل الكتاب الذين جحدوا رسـالته على الرغم من وجود اسمه ووصفه في كتبهم: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْــلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُــلْ لِلَّذِينَ أُوتُــوا الْكِتَــابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَـإِنْ أَسْـلَمُوا فَقَـدِ اهْتَـدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَـا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20]

وقـال في سـور المائـدة، وهي من أواخـر مـا نـزل من القرآن الكريم، وحين كان للسلمين قوة وشـوكة: ﴿وَأَطِيعُـوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَـاعْلَمُوا أَنَّمَـا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: 92]

وقبل ذلك قـال تعـالى في سـور النحـل المكيـة: ﴿فَـإِنْ

تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النحل: 82]

وهكذا نجد القرآن الكريم في جميع المراحل التي مرت بها رسالة الإسلام يدعو إلى رفع الوصاية عن الخلق في معتقداتهم، وإتاحة الحرية لهم للتفكير والبحث والنظر، لأن العقائد لا يمكن أن تصل إليها العقول والقلوب إلا بعد البحث والنظر والتفكير العميق.

أعلم أنك ستذكر لي أن تلك القلوب والعقول التي تتعامل معها يستحيل أن تصل إلى الحقيقة.. ولنفرض ذلك.. فهل أنت مكلف بدعوتهم، أم مكلف بهدايتهم.. لقد قال الله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ ذاكرا له أن الهداية بيده، لا بيد أحد من الناس: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [القصص: 56]

بل إن القرآن الكريم يصف بهذا الوصف جميع المؤمنين المتواضعين المستنين بسنة رسول الله ﷺ في كيفية التعامل مع الخلق، والذين يكتفون بأداء ما عليهم من تكاليف، ويسألون لخلق الله الهداية لسواء السبيل من دون أن يسيئوا الأدب في ذلك لا مع الله، ولا مع عباد الله.. فقد علمنا الله أن نقول للمخالفين: {لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [سبأ: 25]

ولذلك فإن ما تقع فيه، ليس حرصا على الدين، وإنما هو مرض من الأمراض، وعقدة من العقد النفسية، التي جعلتك تختصر الحقائق في تلك القناعات التي اقتنعت بها، فصرت تطلب من العالم جميعا أن يفكر بمثل تفكيرك، وينظر بنفس النظارات التي ترتديها.

لقد أشار الله تعالى في القرآن الكريم إلى هذه العقدة.. عقدة الوصاية على الخلق.. وهي العقدة التي مرض بها فرعون، حتى جعلته يدعي الألوهية.. لقد قال تعالى مخبرا عنه، وعن مقولته: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص: 38]

هذه مقولة فرعون، وهي لا تختلف كثـيرا عن المقـولات التي ترددها كل حين.. فأنت أيضا تقـول: (مـا علمت لكم من إله غير الإله الذي أعتقد به.. فمن خالف رؤيـتي فقـد خـالف الحق المطلق)

ولذلك أوصيك أيها الرفيق العزيز أن تتواضع لربـك، وأن تعلم أنك عبد لله، وأن وظيفتـك في هـذه الحيـاة أن تتعـرف على الله، وأن تسلك السـبيل إليـه، حـتى تنـال القـرب منـه، ورضوانه.. أما خلق الله، فتعامـل معهم بمـا يقتضـيه السـلام والمحبة والرحمة.. ثم تتركهم بعد ذلك لله ربك وربهم.. فهـو الـديان الوحيـد الـذي يـدينهم، والقاضـي الوحيـد الـذي يحكم عليهم.

فأنت ـ أيها الرفيق العزيز ــ لسـت عليهم بمسـيطر، ولا عليهم بوصي، ولا عنهم بمسؤول.. فمن شـاء منهم فليـؤمن، ومن شـــاء فليكفـــر.. ومن شـــاء فليتصـــوف، ومن شـــاء فليتزندق.. ومن شاء أن يكون أشـعريا أو ماتريـديا أومعتزليـا أو سـلفيا أو شـيعيا أو إباضـيا.. فلـه ذلـك.. بـل لـه أن يصـير ملحدا أو علمانيا أو ليبراليا.. أو ما شاء له عقله من المذاهب والأفكار..

ودورك أيهـا الرفيـق العزيـز في هـذا الجـو المشـحون بالأفكـار المتناقضـة أن تـؤدي دورك بكـل هـدوء وأدب، وأن تعلم في نفس الـــوقت أن اللـــه هـــو المهيمن على عـــالم الأفكار.. وهو الذي يربي عباده بعـد ذلـك في حركـة تكامليـة توصـلهم في الأخـير إلى الحقيقـة الـتي يريـدها هـو، لا الـتي تريدها أنت..

لا تسمهم علماء.. فهم قطاع طرق

أيها الرفيق العزيز.. هل تحسب أن كل أولئك الذين تتحدث عنهم بإعجاب شديد علماء؟.. وهل يمكن للعالم أن يكون له كل ذلك الحرص على الدنيا، وكل ذلك الوقوف على أبواب الأمراء؟.. وهل يمكن للعالم أن يتتبع الفتن، لا لإخمادها، وإنما لإشعالها، وإضافة المزيد من الحرائق إليها؟

أعلم أنك ستصرخ في وجهي مثلما يصرخ أولئك المفتونون بهم، وبتلاعبهم بالألفاظ، واحتيالهم على العقول، واستخدامهم لكلمات ربهم المقدسة وشاحا يغطون به جرائمهم، وطلاء يسترون به قبحهم، وعطرا يسترون به نتنهم.

لكني لن أرد عليك بنفسي، أو بكلماتي، فهي أدنى من أن يكون لها معنى، ولكني أذكرك بقوله ﷺ: (لأنا من غير الدّجّال أخوف عليكم من الدّجّال) فقيل: وما ذلك؟ فقال: (من الأئمّة المضلّين)[1]

بل أذكرك بقوله تعالى عن أولئك العلماء من أهل الكتاب الذين يضلون الناس، ويتاجرون بالدين، ويتلاعبون بالفتاوى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 34]؛ فهذه الآيات كما تنطبق على أحبار ورهبان أهل الكتاب تنطبق على أحبار ورهبان هذه الأمة.

لقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: (لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم شبرا شبرا، وذراعا ذراعا حتّى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم). قلنا: يا رسول الله، اليهود والنّصارى؟. قال: (فمن؟))[2]

---

[1] رواه أحمد.

[2] البخاري- الفتح 13 (7320)

فهل ترى أن هذه الأمة معفو عنها في هذا الجانب؟.. أو أن علماءها أكـثر حرمـة من علمـاء بـني إسـرائيل؟.. وكيـف عرفت ذلك، ومن أين لك به، وقد أخـبر رسـول اللـه ﷺ أنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلناه؟

أعلم ما ستقول لي.. فـأنت سـتذكر لي بأننـا لـو طبقنـا ذلـك، فلن يبقى عـالم في الأمـة.. وأنت تفعـل ذلـك.. فـأنت ترفع بعضهم إلى درجة القديسين، وتنزل بـآخرين إلى درجـة الشياطين.. وأنت لسـت ملومـا في الرفـع والخفض، ولكنـك ملوم في أولئك الذين رفعتهم، وأولئك الذين خفضتهم.

أنت بفعلك ذلك حولت قطاع الطرق إلى شـرطة تحمي الناس، وحولت الشرطة إلى قطاع طـرق.. ذلـك أنـك ذهبت إلى كـل أولئـك العلمـاء المتواضـعين الزاهـدين الممتلـئين بالحكمـة؛ فـرميتهم في أتـون عـذابك، وذهبت إلى أولئـك المستكبرين الممتلئين غرورا، والداعين إلى كل ألوان الفتن، فرميتهم في جنتك.. وذلك ما سبب فتنا كثيرة.

فعامـة النـاس لا يأخـذون دينهم إلا عن العلمـاء، وهم يختارون مـا يختـار لهم أمثالـك، فـإن دللتمـوهم على الهـداة اهتدوا، وإن دللتموهم على المضلين ضلوا.

وللأسـف.. أنت كنت من الـذين دعـوهم إلى المضـلين.. لأنك لم تستند للمعايير التي وضعها ربـك في وصـف العلمـاء الصالحين الصادقين..

وأول أوصافهم وأعظمها عدم ركونهم للدنيا وأهلها، فهم زاهدون فيها، وفي أمرائها وملوكها، لا يبيعون دينهم بشـيء.. ولا يحكمون إلا بما يرون أنه الحق.

ولذلك وصف الله تعالى بعض قطـاع الطـرق ممن كـان عالما، ثم تحول إلى لص من اللصوص بتثاقله للدنيا وأهوائها، فقال: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَـوْ شِـئْنَا لَرَفَعْنَـاهُ بِهَـا وَلَكِنَّهُ أَخْلَـدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ

تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 175، 176]

وهكذا وردت الأحاديث الكثيرة تحذر من هذا النوع من العلماء، وتبين أنهم الخطر الأكبر الذي يستعمله الشيطان في تحريف الأديان، ومنها قوله ﷺ: (يكون في آخر الزّمان عبّاد جهّال وعلماء فسّاق)(1)

و قال: (هلاك أمّتى عالم فاجر وعابد جاهل وشرّ الشّرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء)(2)

وبين صفات هؤلاء الأدعياء، فقال: (لا تتعلّموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السّفهاء، ولتصرفوا به وجوه النّاس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النّار)(3)

وقال: (أوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض الأنبياء: قل للّذين يتفقّهون لغير الدّين، ويتعلّمون لغير العمل، ويطلبون الدّنيا بعمل الآخرة، يلبسون للنّاس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذّئاب ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصّبر، إيّاى يخادعون، وبي يستهزءون: لأفتحنّ لهم فتنة تذر الحليم حيرانا)(4)

وهكذا صنف رسول الله ﷺ العلماء من أمته إلى صنفين، فقال: (علماء هذه الأمّة رجلان: رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طمعا ولم يشتر به ثمنا، فذلك

---

(1) الحاكم.

(2) الدارمي.

(3) ابن ماجه.

(4) ابن عبد البر.

يصلّى عليه طير السّماء وحيتان الماء ودوابّ الأرض والكرام الكاتبون، يقدم على الله عزّ وجلّ يوم القيامة سيّدا شريفا حتّى يرافق المرسلين، ورجل آتاه الله علما في الدّنيا فضنّ به على عباد الله وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا، فذلك يأتي يوم القيامة ملجما بلجام من نار ينادى مناد على رءوس الخلائق: هذا فلان بن فلان آتاه الله علما في الدّنيا فضنّ به على عباده وأخذ به طمعا واشترى به ثمنا، فيعذّب حتّى يفرغ من حساب النّاس)(1)

وأخبر ﷺ عن مواصفات العالم الصادق السائر على منهاج النبوة، فقال: (لا تجلسوا عند كلّ عالم إلّا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس: من الشّكّ إلى اليقين، ومن الرّياء إلى الإخلاص، ومن الرّغبة إلى الزّهد، ومن الكبر إلى التّواضع، ومن العداوة إلى النّصيحة)(2)

وقد أخبر الإمام علي ــ شاكيا عن ذلك الاستخدام المقيت من طرف أئمة الجور والضلال لهذا النوع من مدعي العلم ــ فقال: (قطع ظهري رجلان من الدنيا.. رجل عليم اللسان فاسق، ورجل جاهل القلب ناسك، هذا يصد بلسانه عن فسقه، وهذا بنسكه عن جهله، فاتقوا الفاسق من العلماء، والجاهل من المتعبدين، أولئك فتنة كل مفتون، فانّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ياعلي، هلاك أمتي على يدي كل منافق عليم اللسان)(3)

وقال: (إن في جهنم رحى تطحن، أفلا تسألوني ما طحنها؟ فقيل له: وما طحنها يا أمير المؤمنين؟ قال: العلماء الفجرة، والقراء الفسقة، والجبابرة الظلمة، والوزراء الخونة،

---

(1) الطبراني في الأوسط.

(2) أبو نعيم في الحلية.

(3) الخصال : 296 / 65.

والعرفاء الكذبة) (1)

وقال الإمام الصادق في حديث طويل يبين دركات هذا النوع من العلماء في نار جهنم فقال: (إن من العلماء من يحب أن يخزن علمه، ولا يؤخذ عنه، فذاك في الدرك الأول من النار.. ومن العلماء من أذا وُعظ أنف، وإذا وَعظ عنف، فذلك في الدرك الثاني من النار.. ومن العلماء من يرى أن يضع العلم عند ذوي الثروة والشرف، ولايرى له في المساكين وضعا، فذاك في الدرك الثالث من النار.. ومن العلماء من يذهب في علمه مذهب الجبابرة والسلاطين، فإن رُدَّ عليه شيء من قوله، أو قُصِّر في شيء من أمره غضب، فذلك في الدرك الرابع من النار.. ومن العلماء من يطلب أحاديث اليهود والنصارى ليغزر بها علمه، ويكثر بها حديثه، فذاك في الدرك الخامس من النار.. ومن العلماء من يضع نفسه للفتيا ويقول: سلوني، ولعلّه لا يصيب حرفا واحدا، والله لا يحب المتكلفين، فذاك في الدرك السادس من النار.. ومن العلماء من يتخذ علمه مروّة وعقلا فذاك في الدرك السابع من النار) (2)

وعلى منهاجهم سار الأولياء محذرين من أولئك الدجاجلة الذين لبسوا مسوح العلماء، وراحوا يفسرون الدين بأهوائهم، وقد كان يحيى بن معاذ يقول مخاطبا لهم: (يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية!)

وقيل لبعضهم: إن الفقهاء يخالفونك، فقال: (ثكلتك أمّك، وهل رأيت فقيها بعينك! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه،

---

(1) الخصال : 69 / 103.

(2) الخصال : 352 / 33.

الـورع الكـافّ نفسـه عن أعـراض المسـلمين، العفيـف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم)

وعلى منهـاجهم ينبغي أن يسـير كـل سـائر على منهـاج النبوة.. فلا حرمة لكل من يشوه الـدين، أو يحرفـه، أو ينشـر بدلــه دين الشــيطان وقيمــه.. ومن ســكت عن ذلــك، فهــو شيطان أخرس.

لا تبع قلمك

أيها الرفيق العزيز.. لقد رأيتك قبل أيـام مـع مـدير تلـك المجلة المشبوهة، والتي لا تعرف غير الشغب، وإثارة الفتن، وكنت منسـجما معـه انسـجاما كليـا، ثم مـا لبثت حـتى قـرأ الناس لك مقالا شتت جمعهم، وفـرق وحـدتهم، وملأ حيـاتهم بالصراع.

وليتك راقبت نفسك وأنت تكتبه، ولم تراقب ما يشـتهيه ذلـك المـدير وغـيره، فنحن مطـالبون بـأن نـزرع السـلام، لا الصراع، والوحدة، لا الفرقة، والمحبة، لا البغضاء، ولذلك كان كـل من يـدعونا إلى الفتنـة شـيطانا، حـتى لـو لبس ثيـاب الإنسان.

وأريد أيهـا الرفيـق العزيـز أن أنبهـك إلى أن الشـياطين المعاصرين لا يختلفون كثـيرا عن الشـياطين القـدامى.. فقـد كـان القــدامى يضـعون الأمـوال في الصـرر، ثم يسـلمونها للأمراء والملـوك ليصـلوا بهـا من يـبيعهم قلمـه أو حنجرتـه.. والمعاصــرون كــذلك، يســتعملون نفس الأســلوب.. ولكن بطريقة أكثر تطورا.

ولذلك أحذرك من أن تبيع قلمك لهؤلاء، وكن صادقا مـع ربك.. فأنت لم تنزل لهذه الدنيا لتصب الزيت على النار التي يوقدها الشيطان، وإنما نزلت لتطفئها.. فلا تجعـل من قلمـك كبريتا، ولا تجعل من مدادك زيتا..

وتذكر جيدا، وكل حين تلك الكلمات التي قالها الجاحظ، فقد روي أنه رؤي في النوم، فقيل له: ما فعل الله بك؟

ولا تكتب بخطك غير شيء... يسرك في القيامة أن تراه [1]

بل تذكر ما قاله الله تعـالى في كلماتـه المقدسـة، فقـد

[1] إحياء علوم الدين (4/ 509)

قال: ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79]

وضرب المثل على ذلك بعالم من علماء من قبلنا من الأمم، فقال﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: 175]

ثم بين كيف تحول ذلك العالم إلى كلب يلهث وراء كل بريق، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]

وهكذا صاح إشعيا في بني إسرائيل قائلا:(ويل للذين يقضون أقضية الباطل، وللكتبة الذين يسجلون جورا ليصدوا الضعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسي شعبي لتكون الأرامل غنيمتهم، وينهبوا الأيتام) [إشعياء:10 /1-2]

وهكذا حذر رسول الله ﷺ العلماء من أن يختصروا وظائفهم في إرضاء الأمراء، فقال: (من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن)[1]

وقال: (إنه يُستعمل عليكم أُمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع) [2]

وقال: (العلماء أمناء الرسل على عباد اللّه عزّ وجلّ ما لم يخالطوا السلطان، فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم) [3]

---

[1] () رواه الطبراني في الكبير.

[2] () رواه مسلم.

وقال: (شرار العلماء الّذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الّذين يأتون العلماء)(4)

وهكذا نبه علماء هذه الأمة وصالحوها إلى خطر تلك الأقلام المأجوره، فقال بعضهم: (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص)

وقال آخر: (ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور عاملاً)

وقال آخر: (من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تملقاً إليه وطمعاً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه)

وقال آخر: (ما أسمج بالعالم أن يؤتى إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير!)

وقال آخر: (كنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم حتى جربت ذلك؛ إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأنتم ترون ما ألقاه به من الغلظة والفظاظة وكثرة المخالفة لهواه ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافاً مع أني لا أخذ منه شيئاً ولا أشرب له شربة ماء)

وقال آخر: (علماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق هواه ولو أخبروه بالذي عليه وفيه نجاته لاستثقلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاة لهم عند ربهم)

وقيل لآخر: (لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك) فقال: (لا تعجلوا.. ثلث يموتون قبل الإدراك.. وثلث يلزمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق.. والثلث الباقي لا يفلح منه

3() رواه ابن عبد البر في العلم كما في المختصر ص 87.

4() المرجع السابق، ص 88.

إلا القليل)

وسئل آخر: (ما بال كبراء زماننا وملوكها لا يقبلـون منّـا، ولا يجدون للعلم مقدارا، وقد كانوا في سالف الزمان بخلاف ذلك؟) فقـال: (إنّ علمـاء ذلـك الزمـان كـان يـأتيهم الملـوك والأكابر وأهـل الـدنيا فيبـذلون لهم دنيـاهم، ويلتمسـون منهم علمهم، فيبالغون في دفعهم وردّ منّتهم عنهم؛ فصغرت الدنيا في أعين أهلها، وعظم قدر العلم عنـدهم نظـرا منهم إلى أنّ العلم لو لا جلالته ونفاسته ما آثره هـذه الفضـلاء على الـدنيا، ولو لا حقارة الدنيا وانحطاطها لما تركوهـا رغبـة عنهـا، ولمّـا أقبـل علمـاء زماننـا على الملـوك وأبنـاء الـدنيا وبـذلوا لهم علمهم التماســا لــدنياهم عظمت الــدنيا في أعينهم وصــغر العلم لديهم لعين ما تقدّم)[1]

هــذه وصــايا الحكمــاء وكلمــاتهم.. وإيــاك أن تفهمهــا بحروفهـا، وتـبرئ نفسـك بسـبب ذلـك.. فـالأمير قـد نسـميه مديرا، وقد نسميه وزيرا، وقد نسميه خفيرا.. والعبرة ليســت بالأسماء، وإنما بالمسميات.. فارفع قلمـك عن المسـتنقعات، فأنت مسؤول عن كل حرف يكتبه.. وقد يـدخلك الجنـة، وقـد يرميك في طبقات الجحيم.

---

[1] () المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج1، ص: 145.

أيها الرفيق العزيز.. لقد راجعت كـل مـا ذكـرت لي من الأحداث الـتي وقعت لـك في فـترة توليـك لتلـك المسـؤولية الضـخمة الـتي نـاء بهـا ظهـرك.. ورأيت أنهـا جميعـا لا تعـود لأولئك العمال البسطاء، ولا أولئك الأعوان المساكين.. وإنمـا تعود إليك.

فأنت لم تكن تعـالج الأمـور بالحكمـة والرويـة والتـؤدة، وإنما كنت تنتفخ مثلما تنتفخ الهـررة، ثم تنفجـر فيهم جميعـا، فتملأهم بـالرعب، ثم لا تلبث أن تتلاعب بـأرزاقهم، وتهـددهم بقطعها أو إيقافها..

ولهذا كان غضبك هو الذي جر عليك كـل تلـك الـويلات.. وهو الذي جلب لك كل أولئك الأعـدء.. الـذين مـا إن لاح لهم بصـيص من القـدرة حـتى راحـوا يتحولـون مثلـك إلى هـررة منتفخة تنفجر فيك، مثلما كنت تنفرج فيهم.

ولو أنك كنت أكثر حكمـة، ولم تـترك لغضـبك أن يتحكم فيك.. بل سارعت إلى ما أعطاك ربك من علم، فأطفأت بـه جمر غضبك، لما وقع ما وقع.

أنت تذكر لي أن تصرفاتهم كانت مملوءة بالطيش، وأنـا أقرك على ذلك، ولكني لا أقرك في أن تتحول تصرفاتك أيضا إلى تصرفات طائشة، فالطيش لا يعالج بالطيش، وإنما يعالج بالحكمة.

لعلك سمعت بقصة ذلك الذي بال في المسجد في عهد رسول الله ﷺ.. لا شك أن تصرفه كان طائشا، وكـان لا يقـل عن تصرفات أولئك العمـال والأعـوان الـذين شـكوت منهم.. لكن النبي ﷺ لم يعالج تلك الواقعة بما عالجت به أمثالهـا، أو ما هو دونها..

بل عالجها بمنتهى الحكمة والتؤدة والرفق، فقد راح أولا

إلى أصحابه الذين اشتدوا معه، وغضبوا عليه، ينتهرهم، ويدعوهم إلى عدم التعرض له، بل يمنعهم من أن يقطعوا عليه بوله، فقال: (لا تُزرِمُوه)

ثم ما إن انتهت حاله هذه حتى بدأ رسول الله ﷺ بمعالجة ما دعاه إلى ذلك، وهو جهله، فراح يعلمه بكل رِفق، وبكل سهولة، فلم يجد الأعرابي إلا أن يقول قولته المشهورة، التي أضحكت رسول الله ﷺ: (اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحداً)[1]

وهي قولة تشير إلى أن ذلك الجلف الغليظ الذي لم يتأدب مع بيت الله، وفي وجود رسول الله ﷺ، قد تحول بسبب ذلك التصرف إلى شخص آخر، أكثر محبة ولينا ورحمة.

وهكذا حدث بعض الصحابة قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: (واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إلي)، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسن تعليما منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن)[2]

وقد كان هذا السلوك النبوي داعية لذلك الرجل، لأن ينطق بتلك الشهادة التي لا نزال نرددها: (ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني)

وهكذا حدث آخر، قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ،

---

[1] رواه البخاري وغيره..

[2] رواه مسلم..

وعليه رداء نجرانيّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيّ فجبذه بردائه جبذة شديدة نظرت إلى صفحة عنق رسول الله ﷺ، وقد أثّرت بها حاشية الرّداء من شدّة جبذته، ثمّ قال: يا محمّد مر لي من مال الله الّذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ثمّ أمر له بعطاء)(1)

وهكذا حدث آخر، قال: إنّ رجلا أتى النّبيّ ﷺ يتقاضاه فأغلظ، فهمّ به أصحابه فقال رسول الله ﷺ: «دعوه فإنّ لصاحب الحقّ مقالا». ثمّ قال: «أعطوه سنّا مثل سنّه»، قالوا: يا رسول الله، إلّا أمثل من سنّه، فقال: «أعطوه، فإنّ من خيركم أحسنكم قضاء»(2)

هذه هي أخلاق رسول الله ﷺ.. وهي التي أثنى عليها قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]

وأثنى عليها كل من عرف رسول الله ﷺ، وأخلاقه العالية، وقد قال أنس بن مالك يصفه، قال: (لم يكن النبي ﷺ سبابا، ولا فحاشا، ولا لعانا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له، ترب جبينه)(3)

فلو أنك ـ أيها الرفيق العزيز ـ تعاملت معهم بهذه السنة النبوية لكان أمرك معهم مختلفا تماما.. وقد ورد في بعض الأحاديث ما يصور آثار التحكم في الغضب، وليتك قرأتها قبل أن تبدأ عملك في تلك الوظيفة الخطيرة.

---

(1) البخاري- الفتح 6 (3149) . ومسلم (1057) واللفظ له..

(2) البخاري- الفتح 4 (2306) واللفظ له. ومسلم (1601)

(3) رواه أحمد 3/ 126 (12299) وفي 3/ 144 (12490) والبخاري: 8/ 15 (6031) وفي 8/ 18 (6046)، وفي (الأدب المفرد) 430..

لقـد ورد في الروايـة أن رجلا قـال للنـبيّ ﷺ: علّمـني، فقال: (اذهب، ولا تغضب)؛ فقال الرّجـل: قـد اكتفيت بـذلك، فمضـى إلى أهلـه فـإذا بين قومـه حـرب قـد قـاموا صـفوفا، ولبسوا السلاح؛ فلمّـا رأى ذلـك لبس سـلاحه، ثمّ قـام معهم، ثمّ ذكر قول رسول اللّه ﷺ: (لا تغضـب)، فـرمى السـلاح، ثمّ جاء يمشي إلى القوم الّذين هم عدوّ قومه، فقال: (يـا هـؤلاء ما كانت لكم من جراحة أو قتل أو ضرب ليس فيه أثـر فعليّ في مالي أنا أوفيكموه)، فقال القوم: (فما كان فهو لكم نحن أولى بذلك منكم)، فاصطلح القوم وذهب الغضب(1).

أرأيت أيها الرفيـق العزيـز كيـف اسـتطاع هـذا الرجـل ـ بفضل وصـية رسـول اللـه ﷺ ـ أن ينجي قومـه من الحـرب، ومن غير أن يصرف دينارا واحدا.

ولهذا لم يكن الغضب هـو الـدليل على قـوة الشخصـية، بل الدليل عليها هو السكون والهدوء والحكمـة والتـؤدة، وقـد سـأل رسـول اللـه ﷺ أصـحابه، فقـال: (مـا تعـدّون الصـرعة فيكم؟) قـالوا: (الّـذي لا يصـرعه الرّجـال)، فقـال ﷺ: (ليس ذلك، ولكنّ الّذي يملك نفسه عند الغضب)(2)

وقـال في حـديث آخـر: (ليس الشّـديد بالصـرعة إنّمـا الشّديد من يملك نفسه عند الغضب)(3)

هذه وصايا رسول الله ﷺ لك ولي.. ولو أننا التزمنا بهـا، فإننا لن نكف عنا فقـط شـر الـدنيا وأهلهـا، وإنمـا نكـف عنـا شرور الآخرة أيضـا، فمن المحـال أن نتصـرف بغضـب، ثم لا نقع بعدها في الخطيئة، وكيف يكون الأمر كـذلك، والشـيطان ما نفخ فينا نيران الغضب إلا لنسكن معه نيران جهنم.

1() الكافي باب الغضب ج 2 ص 302 إلى 306.

2() (3) أخرجه مسلم ج 8 ص 30.

3() (4) أخرجه البخاري ج 8 ص 34 و رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف كما في مجمع الزوائد ج 8 ص 70.

لا تكن حمال حطب

أيها الرفيق العزيز.. أليس من العجيب أن تشتغل حمال حطب بعد تلك السنين الطويلة من التعب في جمع الكتب ومطالعتها وفهمها ومذاكرتها مع الطلبة والأساتذة.. هل هذه نهايتك التي تريد أن تلقى بها ربك؟

لقد رأيتك البارحة في تلك القناة التلفزيونية التي استضافتك، تحمل كل أنواع الحطب الجزل، وتصب عليها كل أنواع الوقود، ثم تقوم بإشعالها.. لا بين فردين من الناس كما يفعل البسطاء منهم، وإنما بين الطوائف الكبرى في الإسلام، لتقطع كل ما يربط بينها من جسور التواصل، وحبال المودة.

والعجب أنك بعد أن قمت بذلك سئلت عن وحدة المسلمين، فرُحت تقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

ثم تعقب عليها بأن الوحدة واجبة، وأنه لا يمكن للمسلمين أن تكون لهم قوة من غير أن تكون لهم وحدة، ثم ذكرت لهم أن الوحدة لا تعني الاتفاق في كل شيء.. فالتنوع أساس من أسس الوحدة، والتعايش بين المختلفين سمة من سماتها.. وليتك كنت تدرك ما تقول.. إذن لكففت عن رمي الحطب وإشعال النيران.

وهكذا سئلت عن النميمة، فرحت تحذر منها أشد التحذير، وتقرع الواقعين فيها وتوبخهم وتتوعدهم بالعقاب العظيم.. وقد ذكرت فيما ذكرت قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 10-13]

ومع أن هذه الصفات جميعا لا تنطبق على أحد كما تنطبق على الطائفيين الممتلئين حقدا وغلا، إلا أنك رحت تقصرها على ذلك الشاب أو تلك العجوز التي تسعى بالنميمة بين المرأة وزوجها، أو بين الأب وابنه، أما ذلك الذي يشعل النار بين ملايين المسلمين، فهو معفو عنه عندك، لأنه يشبه ذلك اللص الكبير الذي استطاع أن يغري لصوص الدين بأن يسموه ورعا وتقيا، وأن يحرضوه في نفس الوقت على قطع أيدي اللصوص الصغار.

وهكذا رحت تقصر قوله تعالى ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] في امرأة واحدة، هي تلك المرأة التي كانت تشعل الحطب بين رسول الله ﷺ وقومه، ثم تعفي نفسك، وكل أولئك الذين يثيرون الشحناء بين المسلمين من أن يشملهم مفهوم الآية، ويكونوا أحد أبرز مصاديقها.

وهكذا رحت تستعرض ما تحفظه من أحاديث رسول الله ﷺ في النمامين، وأنهم شرار الخق، ومما رويت بسندك في ذلك قوله ﷺ: (ألا أخبركم بشراركم) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: (المفسدون بين الأحبة المشّاؤون بالنميمة الباغون للبرآء العنت)[1]

وقوله ﷺ: (من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق)[2]

وقوله: (لا يدخل الجنّة نمّام)[3]

وقوله: (من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حقّ

---

[1] () رواه أحمد (6/459)

[2] () رواه أبو داود.

[3] () رواه البخاري، كما في الفتح: 10 /6056، ومسلم (105)

شانه اللّه في النار يوم القيامة)(1)

وقوله: (أيّما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بـريء ليشينه بها في الدّنيا كان حقّا على اللّه عزّ وجلّ أن يذيبه بهـا يوم القيامة في النار)(2)

وقولـه بعـد أن مـرّ على قـبرين: (إنّهمـا ليعـذّبان، ومـا يعـذّبان في كبـير. ثمّ قـال: (بلى، أمّـا أحـدهما فكـان يسـعى بالنّميمة. وأمّا الآخر فكان لا يستتر من بوله)(3)

وقوله: (تجد من شرار النّاس يـوم القيامـة عنـد اللـه ذا الوجهين الّذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه) (4)

وغيرها من الأحاديث الكثـيرة الـتي لا تنطبـق على أحـد من النـاس كمـا تنطبـق على أولئـك الـذين لا يكتفـون بنشـر الكراهيــة بين الفــرد والفــردين، وإنمــا ينشــرونها في الأمــة جميعا، وبين مئات الملايين من الناس..

وقد كنت للأسف أحدهم؛ فأنت لم تسـارع إلى الإصـلاح بين المؤمنين، ولا ذكر ما ينشر قيم الأخوة بينهم، وإنما رحت تقتبس من كل شاردة وواردة ما يملأهم بالكراهية والبغضاء.

ولم تكتف بكل تلـك النصـوص الـتي تـدينك، وتـدين من يقـوم بنفس عملـك، وإنمـا رحت تضـيف إليهـا كـل مـا في ذاكرتـك من روايـات عن ذم النميمـة والإفسـاد بين النـاس.. وقد رويت لهم أن لقمان قال لابنه: (يـا بـنيّ، أوصـيك بخلال،

(1) رواه البيهقي في الشعب بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(2) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت.

(3) رواه البخاري، كما في الفتح: 3 /1378، ومسلم (292)

(4) رواه البخاري، كما في الفتح: 10 /6058، ومسلم (2526)

إن تمسّكت بهنّ لم تزل سيّدا: ابسط خلقك للقريب والبعيد، وأمسك جهلك عن الكريم واللّئيم، واحفظ إخوانك، وصل أقاربك، وآمنهم من قبول قول ساع، أو سماع باغ، يريد فسادك، ويروم خداعك، وليكن إخوانك من إذا فارقتهم وفارقوك لم تعبهم ولم يعيبوك)(1)

ورويت لهم بسندك عن الإمام عليّ أنّ رجلا سعى إليه برجل فقال له: (يا هذا، نحن نسأل عمّا قلت، فإن كنت صادقا مقتناك. وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت أن نقيلك أقلناك) فقال: (أقلني يا أمير المؤمنين)(2)

وأنه قال: (شراركم المشّاءون بالنميمة المفرّقون بين الأحبّة المبتغون للبرآء المعايب)(3)

و عن الإمام الباقر أنه قال: (الجنّة محرّمة على المغتابين والمشاءين بالنميمة)(4)

وعن بعض الحكماء أنه زاره بعض إخوانه، وأخبره بخبر عن غيره، فقال له الحكيم: (قد أبطأت عن الزّيارة وأتيتني بثلاث جنايات بغّضت إليّ أخي وشغلت قلبي الفارغ، واتّهمت نفسك الأمينة)

ثم ذكرت لهم أن قحطا أصاب بني إسرائيل، فاستسقى موسى مرّات فما أجيب فأوحى اللّه تعالى إليه أنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام قد أصرّ على النميمة، فقال موسى: يا ربّ من هو حتّى نخرجه من بيننا؟ فقال: يا

(1) إحياء علوم الدين، (3/ 167)

(2) رواه المفيد في الاختصاص، ص 142.

(3) الكافي ج 2 ص 369.

(4) المرجع السابق، ج 2 ص 369.

موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمّاما فتابوا بأجمعهم فسقوا.

ثم قصصت عليهم قصة ذلك الرجل الذي باع عبدا، وقال للمشتري: ما فيه عيب إلّا النميمة، فقال المشتري: قد رضيت، فاشتراه، فمكث الغلام أيّاما، ثمّ قال لزوجة مولاه: إنّ زوجك لا يحبّك وهو يريد أن يتسرّى عليك، وأنا أسحره لك في شعره فقالت: كيف أقدر على أخذ شعره؟ فقال: إذا نام فخذي الموسى واحلقي من قفاه عند نومه شعرات حتّى أسحره عليها فيحبّك، ثمّ قال للزّوج: إنّ امرأتك اتّخذت خليلا وتريد أن تقتلك فتناوم لها حتّى تعرف ذلك، فتناوم فجاءته المرأة بالموسى فظنّ أنّها يقتله فقام فقتلها، فجاء أهلها وقتلوا الزّوج فوقع القتال بين القبيلتين وطال الأمر بينهم[1].

ورويت لهم أن رجلا اتبع حكيما سبعمائة فراسخ في سبع كلمات فلمّا قدم عليه قال: (إنّي جئتك للّذي آتاك اللّه من العلم فأخبرني عن السماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الحجر وما أقسى منه، وعن النّار وما أحرّ منها، وعن الزمهرير وما أبرد منه، وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذلّ منه؟)، فأجابه بقوله: (البهتان على البريء أثقل من السماوات، والحقّ أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحرص والحسد أحرّ من النّار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزّمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمّام إذا بان أمره أذلّ من اليتيم)[2]

وهكذا لم تترك شيئا مما ذكره المفسرون والمحدثون في ذم النميمة إلا ذكرتك.. ولكنك لم تنتبه إلى أنك وفي ذلك المجلس كنت تقوم بأبشع أنواع النميمة، وهي النميمة التي لا تشمل الأفراد، وإنما تشمل الطوائف والشعوب.

---

[1] () المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، ج5، ص: 280.

[2] () المرجع السابق، ج5، ص: 277.

وهكذا عندما سئلت عن القطيعة بين المسلمين والآثـام المرتبطة بها، رحت تقرأ عليهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 58]

ثم تفسرها بأن المـراد منهـا وجـود الـدفاع عن أعـراض المسلمين، وتكذيب من يكذب عليهم لينشر الفرقة بينهم.

ثم رويت لهم قولـــه ﷺ: (دبَّ إليكم داء الأمم: الحســـد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقـول: تحلـق الشـعر، ولكن تحلـق الدين، والذي نفسي بيده! لا تـدخلوا الجنـة حـتى تؤمنـوا، ولا تؤمنوا حـتى تحـابوا، أفلا أنـبئكم بمـا يثبت ذاكم لكم؟ أفشـوا السلام بينكم)[1]

ثم ذكرت لهم أن أفضل الأعمـال الصـالحة السـعي في الصلح بين المسلمين، ومما رويت لهم في ذلك قوله ﷺ: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصـيام والصـلاة والصـدقة) قـالوا: بلى يـا رسـول اللـه! قـال: (إصـلاح ذات الـبين، وفسـاد ذات البين هي الحالقة)[2]، أي: التي تحلق الدين.

ورويت لهم ما ورد من أحـاديث في بيـان الأجـر العظيم الــذي ينالــه من يــذب عن أعــراض المســلمين، ويكــذب الافتراءات الـتي تفـترى عليهم، ومنهـا قولـه ﷺ: (من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة)[3]

وقـال ﷺ: (من ذب عن عـرض أخيـه بـالغيب كـان حقـا

[1] رواه الترمذي (2510)

[2] رواه أبو داود (4919)

[3] رواه الترمذى.

على الله أن يعتقه من النار)[1]

ثم سـئلت بعـدها عن حكم الـذي يغتـاب في مجلسـه الناس، فرويت لهم قوله ﷺ: (من اغتيب عنده أخوه المسـلم فلم ينصـره وهـو يسـتطيع نصـره أدركـه إثمـه في الـدنيا والآخرة) [2]، وقوله (من أذل عنـده مـؤمن فلم ينصـره وهـو يقـدر على أن ينصـره أذلـه اللـه على رءوس الخلائـق يـوم القيامة) [3]

لكنك بعد ذلك كله سئلت عن تلك الطائفـة من طوائـف المسلمين، فرحت تفرغ كل ما في جعبتك من أحقـاد عليهـا، وتسـتعمل كـل وسـائل التحـريض والتحـريش، وتـدعو إلى مقاومتها بكل الوسائل، وتكذب عليها بكل ألوان الكـذب.. ثم تضع ما في صدرك من حطب ووقود وتشعل النار فيها، وفي كل النصوص المقدسة وغير المقدسة التي رويتها.

---

[1] () رواه أحمد.

[2] () رواه أبو الشيخ في التوبيخ.

[3] () رواه أحمد.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب أن يبين الكثير من النـواحي الواقعيـة المرتبطة بالتعاليم التربوية الـوادرة في النصـوص المقدسـة، ذلـك أن الكثـير منـا للأسـف يرددهـا من غـير فهم لأعماقهـا ومعانيها البعيدة التي تشمل الحياة جميعا.

وقـد كـان التركـيز فيـه على الخصـال الـتي نهى عنهـا الشرع، إما نهيـا صـريحا، أو بالإشـارة، لأن التقـوى والـورع لا يمكن أن يتحققا من دون ترك المنهيات، ومراعاة حدود الله، ولذلك سميته [لا تفعل]

وذلـك لا يعـني اقتصـاره على المنهيـات.. وإنمـا يشـمل المـأمورات أيضـا.. فـترك كـل منهي عنـه يسـتلزم اسـتبداله بالمأمور به.. ولهذا ذكرنا البدائل الشرعية لكـل مـا نهى اللـه عنه من سلوكات ومواقف.

وقد حاولنا أن نذكر في وصايا هذا الكتاب كل ما يرتبـط بحياة المسـلم من جـوانب أخلاقيـة وروحيـة ودعويـة .. وهي تشمل نواحي الحياة جميعا.

وقد صغناه بصـياغة بسـيطة على شـكل وصـايا يوجههـا الكاتب لرفيق عزيز عليـه، يـراه كـل حين يقـع في خطـأ من الأخطـاء، فيسـرع وينبهـه إلى اجتنابـه، ويسـتعمل لـذلك كـل وسائل الترغيب والترهيب.